المتحوّل عنها . وذلك هو حال القمر ونوره ، إنّ دور القمر هو دور المرآة العاكسة تماماً . ولعلك تبينت أنّ لفظة السراج ، قد أطلقت على المصطفى ﷺ من ناحية وعلى الشمس من ناحية أخرى لأنّ الشمس مصدر الضوء . ومعروف أنّ المصدر قوى بطبعه . ولعلك تبينت كذلك أنّ لفظة « منيرا » قد أطلقت صفة للمصطفى ﷺ السراج المنير ، تماماً كما أطلقت هذه اللفظة صفة لنور القمر . وهذه المجموعة من الملابسات والعجائب تدعونا إلى أن نتدبر مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، وذلك فى القول عن المصطفى ﷺ : ﴿ **وسراجا منيرًا** ﴾ . ولعلك تريد أن تقول إنّ الآية الكريمة لا تقول « وسراجا مضيئا » على الرّغم من كون الإضاءة هى الصفة الأساسية للسراج . وهذا صحيح . فقد عرفنا أنّ الشمس مضيئة بينما القمر منير . ومن الجائز أن نقول فى محاولة تبيين الحكمة من هذا القول ومظهر إعجازه بأنّ الشمس التى يطلق عليها لفظ السّراج لضوئها الوهاج النابع منها ، لا يستطيع مخلوق واحد فوق الكرة الأرضية أن يحدّق فيها ، بينما يستطيع كلّ مخلوق أن يحدّق فى القمر لأنّه ليس مصدر إشعاع ولأنّ نوره مستمد من ضوء الشمس . وكأن الآية الكريمة بذلك تجمع للمصطفى ﷺ خير ما فى كل من الشمس والقمر من أجل تحقيق النفع من النبى ﷺ الأسوة الحسنة ، خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، إنّ ربّ العزّة ينزله ﷺ وهو الأسوة الحسنة منزلة الشمس مصدر الضوء الذى لا يستغنى عنه مخلوق واحد فوق هذه الكرة الأرضية . إنّه ﷺ بمثابة الشمس للأبدان . ويعرف هذه الحقيقة وقيمتها جيدا من حرم نعمة الشمس هذه لسبب من الأسباب . ولهذا قيل عنه ﷺ « وسراجا » وإنّ ربّ العزّة لينزل ضوءه ﷺ منزلة نور القمر الذى يتحقق منه النفع لكل عباد الله تعالى والذى لا يرتبط بنوره أذى مطلق . إنّ هذه هى طبيعة سراج المصطفى ﷺ المنير . إنّه من حيث القوة والانتشار الواسع المدى بمثابة ضوء الشمس ، وإنّه من حيث عموم النفع وانتفاء الأذى بمثابة نور القمر . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراًونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ .

لقد تبينا من لفظة السّراج التى أطلقت فى حقه ﷺ ، بينما هى تطلق على الشمس المتوهجة بالحرارة المنبعثة منها هي والضوء، شيئاً من العموم والشمول اللذين لا يستغنى عنهما مخلوق واحد فوق هذه الكرة الأرضية . وإنّ الّذين حرموا من نعمة

الشمس أوقاتاً ثم ذاقوا حلاوة دفئها تبينوا الخسارة الكبرى التى يمنون بها حينما يحرمون من حرارة الشمس فى أى صورة من الصور . وإنّ الّذين هداهم الله تعالى إلى نور الإسلام بعد أن قضوا بعض عمرهم فى ظلمات الكفر يدركون حقيقة نعمة الله تعالى الكبرى عليهم بهدايتهم إلى الإسلام إدراك زيد بن حارثة لهذه النعمة التى نوه بها القرآن الكريم فى هذه السورة الكريمة ، ويتبينون حقا الخسارة الكبرى والغبن العظيم اللذين منوا بهما وهم بعيدون عن نعمة الإسلام الكبرى التى بعث الله تعالى بها خاتم الأنبياء والمرسلين . إنّ كلا من نور المصطفى ﷺ وضياء الشمس عامان وشاملان . وقد شاءت العناية الإلهية أن يكون الحصول من نفعهما ممكنا بأبسط الوسائل وأسهلها لأنّ نور المصطفى ﷺ بإرادة الله تعالى ، واصل إلى كل مكان وإنّ ضياء الشمس يمكن أن ينال كل إنسان منه حظه . فمن نعم الله تعالى على الإنسانية أن جعل أمور الحياة الرّئيسية بدون مقابل ، كالضوء والهواء . ويلحق بهما الماء عماد هذه الحياة . وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش الحياة الصحيحة دون توفر أسبابها الرّئيسية من ضوء ونور وهواء وماء وطعام وما إلى ذلك ، فما الذى يمكن أن يقال عن روح هذا الإنسان التى يمكن أن تجوع وتعرى ، وتظمأ وتضحى ، وتموت وتحيا ، كما يجوع جسد الإنسان ويعرى ويظمأ ويضحى ويموت ويحيا ؟ إنّ الذى يقال عن روح الإنسان فى أبسط الأحوال هو الذى يقال عن جسد الإنسان . إنّ هذه الروح بحاجة إلى الطعام والكساء . الماء والغطاء كى تحيا الحياة التى أريد لها أن تحياها وإلاّ ماتت حقيقتها وجوهرها . وإن كان صاحبها يجيء ويذهب ، يأكل ويتمتع كما تتمتّع الأنعام ويلهيه الأمل . وربما كان لطيفا أن نشير ، دليلا على حاجة الروح إلى غذائها ، حاجة الجسد إلى غذائه أن آيات الذّكر الحكيم من سورة الفرقان ، وهى تتحدّث عن عدد من نعم الله تعالى على الإنسان ، كى يتمكن جسده من الحياة على ظهر هذه الأرض ، قد أولت الرّوح عنايتها ، وتحدّثت عن القرآن الكريم ، كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية ، التى نزلت على المصطفى ﷺ ، فى أسمى طرق الوحى ، باعتبار القرآن الكريم بمثابة ماء الأرواح وغذائها ، وذلك أثناء الحديث عن ضروب مختلفة من المياه . قال تعالى[1] : **ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثمّ قبضناه**

---

(١)سورة الفرقان ٤٥ – ٥٤ وانظر هنا مثلا كتابنا تأملات فى سورة الفرقان ١٠٩ – ١٣٨

إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرّياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه ممّا خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلاّ كفورا . ولوشئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً . فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا . وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا . وكان ربّك قديرا ﴾ فالله سبحانه وتعالى قد صرف القرآن بين النّاس ليذكروا . وإنّ على المصطفى ﷺ أن يجاهد بالقرآن الكريم جهادا كبيرا .

وإنّ حياة هذه الرّوح إنّما تكون من الطريق الواحدة التى بينها القرآن الكريم . قال عز من قائل فى محكم كتابه[1] : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النّاس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ أما الميت فهو الكافر لأنّه لم يحقق الهدف الذى من أجله خلقه الله قال عز من قائل[2] : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾ وأما الحى فهو المسلم لله ربّ العالمين وقد قال عزّ من قائل فى محكم كتابه[3] : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ وإذا كنّا عرفنا حقيقة كلّ من الميت والحى فإنّ آية سورة الأحزاب تبين حقيقة نور المصطفى ﷺ الّذى جعله الله لعباده : ﴿ **يا أيُّها النبى إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا** ﴾ كما تبين آية سورة النّساء مثلاً حقيقة نور القرآن الكريم الّذى جعله الله تعالى لعباده كذلك . قال تعالى[4] : ﴿ **يا أيّها النّاس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة النّاس ، وهى تشمل المسلمين وغير المسلمين ، فهذا النور ينبغى أن يستفيد منه كل عباد الله تعالى . ويعتبر ذلك

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢
(٢) سورة الذاريات ٥٦
(٣) سورة يس ٦٩ ، ٧٠
(٤) سورة النساء ١٧٤

معمقا للعموم والشمول اللذين ، رغبنا فى أن نقف عندهما بعض الوقت . كما تبين هاتان الآيتان الكريمتان من سورة المائدة ، كون كل من الرّسول الكريم والقرآن العظيم ، نورا يهدى به الله تعالى سبل السّلام وإلى الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . قال تعالى[1] : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾.

أما وقد اتضحت أبعاد الضوء المتوهج من السراج المنير ، المصطفى ﷺ والقرآن الكريم ، وضرورة شمول هذا النور كلّ النّاس ممّا يفهم منه ما خص به ﷺ من عمومية رسالته لكل عباد الله تعالى . فما أكثر النصوص من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف على عمومية رسالته ودعوته ﷺ . فهل فى الإمكان أن نفهم شيئاً من عمومية الدّعوة إلى الله تعالى من قوله عزّ من قائل : ﴿ **وداعيا إلى الله بإذنه** ﴾ ؟ أيمكن أن نفهم من لفظة الإرسال فى القول « يا أيها النبى إنا أرسلناك » عموم الرّسالة التى خص بها ﷺ ، بينما هى فى حق غيره من المرسلين مقصورة على أناس بأعيانهم . وبالتالى فإنّ الدّعوة إلى الله بإذنه بسبب طبيعة قدرة لفظة الدّعوة فى الدّلالة على العموم الّذى يفهم من مثل قول الشاعر الجاهلى طرفه بن العبد :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر[2]

إن قوله تعالى : « **داعيا إلى الله** » تصريح بعموم دعوة المصطفى ﷺ وتعميق لها بعد أن كان ذلك مفهوما ضمنا ، وبدلالة الالتزام من قوله تعالى : « **يا أيّها النبى إنّا أرسلناك** » ؟ ربما . فالله تعالى أعلم بالمراد .

وإذا كانت لفظة السّراج تطلق فى القرآن الكريم وفى اللغة على الشمس ، فإنها

---

(١) سورة المائدة ١٥ ، ١٦

(٢) مختار الشعر الجاهلى ١/٣٣٠ المشتاة الشتاء . وذلك أشد الزمان . الجفلى أن يعم بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحداً . والآدب الذى يدعو إلى المأدبة . والانتقار أن يدعو النقرى (كجمزى) أى بفتح النون والقاف (قاموس) وهى أن يخصهم ولا يعمهم . يقول : لا يخصون الأغنياء ومن يطمعون فى مكأفأته ولكنهم يعمون طلبا للحمد واكتساب المجد .

تطلق فى لغة العرب على ما يستضاء به فى الظلام . وواضح أنّ القاسم المشترك لهذه الاستعمالات للفظة « السراج » هو الهداية الحسية والمعنوية فى ظلمات الليل ، وظلمات الشرك والجهل . وإنّ العلماء الّذين نظروا إلى السّراج المنير فى الآية الكريمة من زاوية المصباح المضىء تبينوا من وصف السّراج بكونه منيرا ، كون السّراج لا يضىء إذا قل سليطه ودقت فتيلته . وفى كلام بعضهم ثلاثة تضنى : رسول بطىء وسراج لا يضىء . ومائدة ينتظر لها من يجىء . وسئل بعضهم عن الموحِشَيْن فقال : ظلام ساتر وسراج فاتر[1] ولا مانع من الذّهاب إلى كون المراد بالسّراج الشمس التى تبدد ظلام الكون أو المصباح الذى يبدد الظلام وفق حاجة مستعمله . إنّ الشاعر العربى فطن إلى روعة التشبيه التمثيلى فى سورة النور التى نزل فيها مثل نوره جلّ وعلا مثل نور المشكاة الصادر من الزجاجة التى كأنها كوكب درى الخاصة بمصباح أضىء بزيت شجرة الزيتون المباركة يقول الشاعر[2] .

فالله قد ضرب لنـوره مثلا من المشكاة والنبراس

إن الشاعر يشير إلى قوله تعالى من سورة النور[3] : **﴿ الله نور السماوات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكب درىّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار. نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للنّاس والله بكل شىء عليم ﴾.**

وهذه هى الآية الكريمة التّالية التى تستمر كسابقتها فى خطابه ﷺ . قال تعالى : **﴿ وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾** . لقد تبينا بشأن تنزيل القرآن الكريم المصطفى ﷺ فى الآية الكريمة السابقة منزلة السراج المنير ، أنّ هذا السراج المنير إنّما تطرد به كلّ أنواع الظلمات ويهتدى بنوره السّاطع الوهاج ومِنْ ثمّ هنالك علاقة وثيقة بين كونه ﷺ سراجا منيرا هنا ، وكونه أسوة حسنة فى غير هذا الموضع . ومعروف تفاوت الناس فى استعداداتهم للإفادة من نور المصطفى ﷺ ، لأنّ ثمة شرطين ينبغى توافرهما بشأن الإفادة من كلّ من النور الذى مبعثه الهداية ، والنور الذى مبعثه السراج . وهذان الشرطان هما وجود النور من ناحية ، ووجود القوة

---

(١) انظر هنا الكشاف ٥٤٣/٢ وتفسير القرطبى ٥٢٨٣

(٢) ديوان أبى تمّام ص ١٣٠ مطبعة صبيح ١٣٦١ هـ

(٣) الآية ٣٥

المبصرة . المعنوية أو الحسية التى تستقبل نور الهداية فيما يسمى بالبصيرة فيقال إنّها بصيرة نيرة ، والتى تستقبل نور المصباح فيما يسمى بالعين فيقال إنّها عين مبصرة . وحينما يكون ثمة عمى فى حقّ كل من البصيرة والبصر ، فإنّ كلاً من الشخصين لا يستفيدان شيئاً . ومن المعروف بشأنه ﷺ أنّ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هم أكثر المستفيدين من نوره ﷺ . وها هو ذا ﷺ يأمره عزّ وجل بأن يبشر بلسانه العذب وكلامه الحلو الرّطب أولئك الصحابة الأبرار ، أوّل من يشملهم قوله ﷺ[1] خير القرون قرنى ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ويلاحظ أنّنا بصدد البشارة وذلك فى القول « وبشر » وهى ذات علاقة وثيقة بالقول : « ومبشرا » ولكنها بشارة من نوع خاصّ وفريد فى بابه ، لأنها تعين ثواب هؤلاء المؤمنين المتقين ، لا بل إنّها لتشير إلى الثّواب بأنه الفضل . والمعروف أنّ الفضل هو عبارة عما يتفضل به زيادة على الثواب.وإذا ذكر المتفضل به وكبره وعظمته وجلاله ، فذلك معناه أنّ الفضل من جنس وصفه المصطفى ﷺ بشأن الجنة التى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . إنّ الثواب ينبغى أن يكون عظيما . وإنّ الفضل من الله تعالى ينبغى أن يكون أعظم . وقد نصت سورة الشورى على أن فضل الله تعالى الكبير هو روضات الجنات قال تعالى[2] : **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم.والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم.ذلك هو الفضل الكبير** وواضح أنّ الآية الكريمة تخلع على هؤلاء المبشرين برضوان الله تعالى الصفة التى تجمع كل الفضائل ألا وهى صفة الإيمان . قال تعالى : « **وبشر المؤمنين** » .

وقيل فى نزول هذه الآية الكريمة . أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصرى قالا : لما نزلت : **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**[3] قال رجال من المؤمنين : هنيئا لك يا رسول الله . لقد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات[4] الآية . وأنزل فى سورة الأحزاب . **وبشر**

---

(١) انظر على سبيل المثال هنا الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٧٤ وحديثه عن هذا الحديث والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

(٢) سورة الشورى ٢٢

(٣) سورة الفتح ٢

(٤) سورة الفتح ٥

المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا [1] قال ابن عطية : قال لنا أُبَيّ رضى الله عنه : هذه من أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى . لأنّ الله عزّ وجلّ قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأنّ لهم عنده فضلا كبيرا[2] فلنصغ إلى ما يقول ابن تيمية فى حق طريق أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبشرهم بالفضل الكبير والخير العميم . يقول رحمه الله تعالى[3] : « وإنّما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه ، وهو الصراط المستقيم ، وهو طريق أصحاب رسول الله ﷺ ، خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين . قال تعالى[4] **والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** . فرضى عن السابقين الأوّلين رضا مطلقا . ورضى عن التابعين لهم بإحسان . وقد قال النبى ﷺ فى الأحديث الصحيحة : خير القرون القرن الذى بعثت فيهم . ثمّ الذين يلونهم . ثمّ الذين يلونهم . وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات . فإنّ الحى لا تومن عليه الفتنة . أولئك أصحاب رسول الله ﷺ أبر هذه الأمة قلوبا . وأعمقها علما . وأقلها تكلفا . قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم.وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما : يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم . فوالله لئن اتبعتوهم لقد سبقتم سبقا بعيدا . ولئن أخذ تم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالاً بعيداً . وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله ﷺ خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثمّ قرأ[5] : وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، وقد أمرنا سبحانه أن نقول فى صلاتنا : **اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** وقال النبى

---

(١) لباب النقول ص ١٧٦

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٨٣

(٣) الرّسالة التدمرية ص ٧٤

(٤) سورة التوبة ١٠٠

(٥) سورة الأنعام ١٥٣

ﷺ اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون . وذلك أنّ اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه . والنصارى عبدوا الله بغير علم . ولهذا كان يقال : تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإنّ فتنتهما فتنة لكل مفتون . وقال تعالى[1] : ﴿ **فإمّا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ .

وقال تعالى : « **وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً** » .

فإذا تحوّلنا إلى آخر آيات القسم ، قال تعالى : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ . استطعنا أن نتبين أنّها تتحدّث عن المجموعة المناوئة للدعوة إلى صراط العزيز الحميد . وهذه المجموعة مقابلة للمجموعة الأولى التى بشرت فى الآية الكريمة السابقة . وكأن لسان حال هذه الآية الكريمة ينذر هذه المجموعة الأخرى المناوئة . وهذه المجموعة تنقسم إلى فريقين . الكافرين والمنافقين . ويتم ذكر الفريقين فى الآية الكريمة ، وفق ترتيب الظهور على مسرح الأحداث ، لأنّ الكافرين إنّما يظهرون على حقيقتهم . حينما يأنسون فى أنفسهم القدرة على الظهور ومناوئة الدّعوة التى يعتقدون أنّ فى إمكانهم القضاء عليها لضعفها . ومثل هذا الشعور تمكن من كفار مكّة . ولهذا لم يظهر النفاق فى مكة ، إنّما ظهر فى المدينة المنوّرة ، لأنّ المنافقين كافرون حقيقة مسلمون ظاهرا . وهم إنّما اظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر . وهذه هى حقيقة النفاق لأنهم أحسوا أنّ الإسلام فى المدينة المنوّرة أصبح قوة يحسب لها ألف حساب وبما أنهم أعجز من أن يواجهوا المسلمين وجها لوجه ، فإنهم أعلنوا الإسلام كى يأمنوا المسلمين وأبطنوا الكفر كى يأمنوا إخوانهم الكافرين من العرب ومن أهل الكتاب . وانظر إلى ما يؤمر به المصطفى ﷺ فى حق هذا الفريق المناوىء للدعوة إلى صراط العزيز الحميد إنها ذات الأوامر تقريبا التى نتبينها فى الآيات الكريمات الثلاث الأول من السورة الكريمة . وما قيل هنالك يقال هنا . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربّك إنّ الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ . إنّ المصطفى ﷺ يؤمر هنا بألاّ يطيع الكافرين والمنافقين . وإن المنع عن النتيجة وهى الطاعة يعنى المنع عن

---

(١) سورة طه ١٢٣ .

أسبابها من تقريبهم والإصغاء إليهم ، لأنهم هم العدو الذى ينبغى أن يحذره المصطفى ﷺ بنص القرآن الكريم . وتضيف الآية الكريمة جديداً له علاقة بما أشارت إليه السورة الكريمة فى ثناياها من أذى كلّ من الكافرين والمنافقين ، وبخاصة فى غزوة الأحزاب ، وبشأن تزويج الله تعالى له ﷺ زينب بنت جحش . إنّ جوّ الرّحمة الذى يسيطر على هذا القسم ، يمثّل فى طريقة معاملة المصطفى ﷺ الرّءوف الرّحيم وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم ، لكل من الكافرين والمنافقين . أن يدع المصطفى ﷺ أذاهم ، بمعنى ألا يبادلهم السيئة بالسيئة . يقول ابن منظور[1] : وقوله عز وجل : « ودع أذاهم تأويله أذى المنافقين ، لا تجازهم عليه إلى أن تؤمر فيهم بأمر » كما أنه عليه ﷺ أن يتوكل على الله تعالى الذى يرشده ويسدده ويكلؤه ويعينه وينصره . وكفى بالله وكيلا.إنّ الذى يكون الله تعالى حافظه القائم على أمره فى غنى بالله تعالى عن كل ما سواه .

إنّ جو الرّحمة والمحبة والحنان والسّكينة والطمأنينة والخشوع هو الذى يسيطر على أجواء الآيات الكريمات . وما الذى يتوقع نتيجة لكل هذا الفضل من الله تعالى على هذا الرّسول الكريم ، وعلى هذه الأمة التى نعتها الله تعالى بأنها خير أمّة أخرجت للناس والتى كانت كذلك فعلا . الذى يتوقع نتيجة هو ما جاء فى قوله تعالى فى سورة النور[2] : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾** قال تعالى : **﴿ يا أيّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريما . يا أيها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله . وكفى بالله وكيلا »** .

---

(١) لسان العرب « أذى »

(٢) الآية ٥٥

(١٣)

ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضين بماآتيتهنّ كلّهنّ

الآيات ٤٩ ــ ٥٢

هذا القسم يتكوّن من أربع آيات كريمات ، موضوعها الرّئيسى اللبنة الكبرى الأولى فى بناء الأسرة فالمجتمع فالأمة . إنّه الزّواج .قال تعالى :﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلقتوهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدّة تعتدونها فمتعوهنّ وسرّحوهنّ سراحا جميلا . يا أيُّها النبى إنآ أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاّتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إنّ أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج ، وكان الله غفوراً رحيما . تُرْجى من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء . ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحلّ لك النّساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلاّ ما ملكت يمينك . وكان الله على كل شيء رقيبا** » .

لقد تبينا أنّ السورة الكريمة فى آياتها الأول قد عنيت على جهة الخصوص بالأدعياء الّذين صرّحت بأنّهم ليسوا أبناء على الحقيقة . وبينت وجه الحقّ والصّواب فى كونهم أبناء لآبائهم الحقيقيين ، فعليهم أن يلحقوا بهم . وعلى الجماعة المسلمة أن تعاونهم على تحقيق ذلك ، فإن لم يعلموا آباءهم فهم إخوان للمؤمنين وموال لهم . وتشاء العناية الإلهية ، كى يتأكد القضاء عمليا على عادة العرب البغيضة فى تنزيلهم الدّعى منزلة الابن الحقيقى ، بعد أن قضى نظريا على هذه العادة)أن تكون زينب بنت

جحش مطلقة زيد بن حارثة ، الذى تبناه المصطفى ﷺ ، إحدى أمّهات المؤمنين اللاّتى قال الله تعالى فيهن ، بعد الحديث عن حكم الدّعى مباشرة : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ وقد بينا أنّ زينب بنت جحش بعد أن انتهت عدّتها تزوجها المصطفى ﷺ . امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾ . ولهذه الحوادث جانبان من العموم والخصوص . أمّا العموم فكون كلّ نساء المسلمين ، بعد طلاقهن كما حدث لزينب بنت جحش مطلقة زيد ابن حارثة ، أن يخضعن للشروط التى وضعها الشّارع الحكيم . وأمّا الخصوص فإنّه حق خالص للمصطفى ﷺ وقد زوّجه الله تعالى زينب بنت جحش كما جاء فى القرآن الكريم ، قد دخل بزينب ، بدون عقد ولا ولىّ ولا شهود . قال تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها** ﴾.

وبتدبرنا للآيات الكريمات الأربع ، اللاّتى يتكوّن منهنّ هذا القسم فإنا نتبين أنّها تجمع بين هاتين الصفتين العموم والخصوص . أمّا العموم فيشمله الآية الكريمة الأولى وهذه الجزئية الكريمة من الآية الكريمة الثّانية ، قال تعالى : ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم** ﴾ وأما الخصوص فما عدا ذلك .

فمع الآية الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدّة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا** ﴾ يقول القرطبى[1] : « لمّا جرت قصة زيد وتطليقه زينب وكانت مدخولا بها وخطبها النبى ﷺ بعد انقضاء عدّتها كما بيناه ، خاطب الله المؤمنين بحكم الزّوجة تطلق قبل البناء ، وبين ذلك الحكم للأمة . فالمطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدة عليها بنصّ الكتاب وإجماع الأمة على ذلك فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا » . وبما أنّ الآية الكريمة ذات علاقة بأحكام شرعية ، فنحن لا نملك إزاء تلك الأحكام سوى أن نقتبس ما قال العلماء الأفاضل فى حقها .

١ – يلاحظ أنّ الآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا** ﴾ وقد لاحظنا أنّ صفة الإيمان هى الصّفة التى تخلعها السورة الكريمة غالبا على

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٤

المسلمين لله ربّ العالمين ، ممّا يفهم منه بفضل الله تعالى أنّ ربّ العزّة قد مكن للمسلمين لله ربّ العالمين دينهم بعد أن استخلفهم فى الأرض . وإنّ رسوخ قواعد دولة الإيمان فى الأرض معناه أنّ هذا المجتمع بحاجة إلى تنظيم أموره عن طريق القواعد التى يضعها الشّرع الحكيم ، كى يسير ذلك المجتمع المؤمن عليهـــا . وإنّ سورة الأحزاب الكريمة ، إحدى سور القرآن الكريم ، التى تضع هذه القواعد التشريعية للمجتمع المسلم لله ربّ العالمين . وواضح أنّ الآية الكريمة هنا تتكلم عن عدّة المرأة المطلقة من زوجها المسلم ، سواء أكانت هى مسلمة أم كتابية ، قبل أن يمسها زوجها . والمعروف أنّ السّورة الكريمة قد عرضت فى شخصية زينب للمرأة المسلمة المطلقة من زوجها الّذى دخل بها . قال تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيد منها وطرا** ﴾ وقد أشارت سورة البقرة إلى حكم المطلقة المدخول بها فى قوله تعالى[1] : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ والمعنى أنّ المطلقات ينتظرن بأنفسهن عن النّكاح ثلاثة قروء تمضى من حين الطلاق . والقروء جمع قرء ، بفتح القاف . وهو الطهر والحيض قولان[2] .

٢ – الآية الكريمة تطلق النّكاح على العقد وحده . وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها . وقد اختلفوا فى النّكاح . هل هو حقيقة فى العقد وحده . أو فى الوطء . أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن إنّما هو فى العقد والوطء بعده إلاّ فى هذه الآية . فإنّه استعمل فى العقد وحده . لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن** ﴾[3] ومعنى من قبل أن تمسّوهنّ ، يعنى من قبل أن تجامعوهنّ[4] يقول الزّمخشرى[5] : « النّكاح : الوطء . وتسمية العقد نكاحا لملابسته له ، من حيث إنّه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثما . لأنّها سبب فى اقتراف الإثم . ونحوه فى علم البيان قول الرّاجز :

اسنمة الآبال فى سحابه

---

(١) سورة البقرة ٢٢٨

(٢) تفسير الجلالين

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٧/٣

(٤) تفسير الطبرى ١٤/٢٢

(٥) الكشاف ٥٤٣/٢

سمى المال بأسنمة الآبال لأنّه سبب سمن المال وارتفاع اسنمته . ولم ترد لفظ النّكاح فى كتاب الله إلاّ فى معنى العقد ، لأنّه فى معنى الوطء ، من باب التصريح به . ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة[1] والمماسّة والقربان والتغشى والإتيان : « فإن قلت : إذا خلابها خلوة يمكنه معها المساس هل يقول ذلك مقام المساس ؟ قلت نعم عند أبى حنيفة وأصحابه . حكم الخلوة الصحيحة حكم المساس »[2] .

٣ – فى الآية الكريمة دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها[3] « فإن قلت : ما فائدة ثمّ فى قوله : ثم طلقتموهنّ قلت : فائدته نفى التوهم عمن عسى يتوهم تفاوت الحكم بين أن يطلقها وهى قريبة العهد من النّكاح وبين أن يبعد عهدها بالنّكاح ، وتتراخى بها المدّة فى حبالة الزّواج ثمّ يطلقها »[4] « أو لوحظ فى ذلك الغالب . فإنّ من أقدم على العقد على امرأة ، إنّما يكون ذلك لرغبة . فيبعدأن يطلقها على الفور . لأنّ الطلاق مشعر بعدم الرّغبة . فلابد أن يتخلل بين العهد والطلاق مهلة يظهر فيها للزّوج نأيه عن المرأة وأنّ المصلحة فى ذلك له »[5] .

٤ – قوله تعالى : « المؤمنات » خرج مخرج الغالب ، إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك الاتفاق[6] « فإن قلت : لِمَ خصّ المؤمنات والحكم الّذى نطقت به الآية تستوى فيه المؤمنات والكتابيات ؟ قلت : فى اختصاصهنّ تنبية على أنّ أصل أمر المؤمن والأولى به أن يتخير لنطفته وألاّ ينكح إلاّ مؤمنة عفيفة . ويتنزه عن مزاوجة الفواسق فما بال الكوافر . ويستنكف أن يدخل تحت لحاف واحد عدّوة

---

(١) جاءت الملامسة مثلاً فى الآية ٤٣ من سورة النساء « أو لامستم النساء » . والمماسة فى الآية الكريمة هذه من سورة الأحزاب . والقربان فى الآية ٢٢٢ من سورة البقرة « ولا تقربوهن حتى يطهرن » والتغشى فى الآية ١٨٩ من سورة الأعراف : « فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرّت به » والإتيان فى الآية ٢٢٢ من سورة البقرة : « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٤

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٧

(٤) الكشاف ٢/٥٤٤

(٥) البحر المحيط ٧/٢٣٩

(٦) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٨

الله ووليه . فالتى فى سورة المائدة[1] تعليم ما هو جائز غير محرّم من نكاح المحصنات من الّذين أوتوا الكتاب . وهذه فيها تعليم ما هو الأولى بالمؤمن من نكاح المؤمنات »[2] .

٥ – فما لكم عليهن من عدّة تعدونها : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء . إنّ المرأة إذا طلقت قبل الدّخول بها لا عدة عليها ، فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلاّ المتوفّى عنها زوجها فإنّها تعدّ منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضاً[3] وقوله : فما لكم يدلّ على أنّ العدّة حقّ الزّوج فيها غالب وإن كانت لا تسقط بإسقاطه لما فيه من حقّ الله تعالى[4] . وقرأ الجمهور : تعتدّونها بتشديد الدّال . افتعل من العدّ . أى تستوفون عددها . من قولك : عدّ الدّراهم فاعتدّها . أى استوفى عددها . نحو قولك : كلته واكتاله . وزنته فاتّزنته[5] .

٦ – وقوله تعالى : « **فمتعوهنّ وسرّحوهنّ سراحا جميلا** » . المتعة ههنا أعمّ من أن تكون نصف الصّداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى[6] : ﴿ **وإنّ طلقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم** ﴾ . وقال عزّ وجلّ[7] : ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النّساء ما لم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين** ﴾ . وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : إنّ رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلمّا أن

---

(١) الآية الخامسة من سورة المائدة . قال تعالى : « اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الّذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذي أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيمتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان.ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

(٢) الكشاف ٢/٥٤٤

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٨

(٤) البحر المحيط ٧/٢٤٠

(٥) البحر المحيط ٧/٢٤٠ وانظر الكشاف ٢/٥٤٤

(٦) سورة البقرة ٢٣٧

(٧) سورة البقرة ٢٣٦

دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها . فكأنّها كرهت ذلك . فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين . قال على بن أبى طلحة رضى الله عنهما : إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلاّ النّصف . وإن لم يكن سمى لها صداقا أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السّراح الجميل »[1] ويقول الطبرى[2] : « فمتعوهن ، يقول : أعطوهن ما يستمتعن به مِنْ عرض أو عين مال » ويقول الزّمخشرى[3] : « ما هذا التمتيع أواجب أم مندوب إليه ؟ قلت : إن كان غير مفروض لها كانت المتعة واجبة . ولا تجب المتعة عند أبى حنيفة إلاّ لها وحدها دون سائر المطلقات . وإن كانت مفروضا لها فالمتعة مختلف فيها . فبعض على الندب والاستحباب . ومنهم أبو حنيفة . وبعض على الوجوب . « ... ابن عباس ... فهذا فى الرّجل يتزوّج المرأة ثمّ يطلقها من قبل أن يمسّها . فإذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدّة عليها تتزوج من شاءت ثمّ قرأ : فمتعوهنّ وسرّحوهنّ سراحا جميلا . يقول : إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلاّ النّصف . فإن لم يكن سمى لها صداقا متعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل[4] .

٧ – قال بعضهم : المتعة فى هذا الموضع منسوخة بقوله : فنصف ما فرضتم[5] قال سعيد بن المسيب : هى منسوخة بالآية التى فى البقرة وهى قوله : **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم** . أى فلم يذكر المتعة[6] .

٨ – وسرّحوهنّ : طلقوهنّ . والتّسريح كناية عن الطّلاق عند أبى حنيفة لأنّه يستعمل فى غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعى صريح[7] .

٩ – وسرّحوهنّ سراحا جميلاً فيه وجهان :

أحدهما أنّه دفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة . قاله ابن عباس : الثانى أنّه

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٨/٣

(٢) تفسير الطبرى ١٤/٢٢

(٣) الكشاف ٥٤٤/٢

(٤) تفسير الطبرى ١٥/٢٢

(٥) تفسير الطبرى ١٥/٢٢

(٦) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٧ وانظر تفسير الطبرى ١٥/٢٢

(٧) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٧

طلاقها طاهرا من غير جماع قاله قتادة[1] والسّراح الجميل هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب[2] وقيل : مِنْ غير ضرار ولا منع واجب[3] وقيل : جميلا : سنة غير بدعة[4] .

وواضح وجه الشبه بين القول فى الآية الكريمة : ﴿ **فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلا** ﴾ والقول فى الآية الكريمة الثّامنة والعشرين : ﴿ **يا أيّها النبى قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرّحكن سراحاً جميلا** ﴾ قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلا** ﴾ .

والآية الكريمة التّالية ، يعتبر المصطفى ﷺ محورها ، إذ أنها تبين فى المقام الأوّل بعض ما خصّ الله تعالى به رسوله الكريم فى مجال الزّواج من كونه عليه الصّلاة والسّلام يتجاوز الأربع النسوة ، ويتزوج من وهبت نفسها له دون ولىّ ولا مهر ولا شهود . وقد جعل الله تعالى تلك الخصائص فى حقّه ﷺ قرآنا يُتْلى لرفع الحرج عنه ولكى يتفرغ للدعوة إلى صراط العزيز الحميد . والمعروف أنّ زهاء ثلث هذا الدّين . وبخاصة ما يتعلق بالأسرة ، إنما وصلنا عن طريق زوجاته ﷺ الطّاهرات . وبهذا يتبين بعض الحِكَم من كون زوجاته ﷺ قد تجاوزن الأربع النّسوة ، وكونه عليه الصّلاة والسّلام ، قد توفى عن تسع نسوة ، كنّ خير معلمات وواعظات . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاّتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفورا رحيما** ﴾ وإنّ هذه الآية الكريمة الطّويلة نسبيا وذات المسائل المتعددة ، بحاجة منّا إلى أن نتناول مسائلها الواحدة تلو الأخرى .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٧

(٢) البحر المحيط ٣٤٠/٧

(٣) الكشاف ٥٤٤/٢

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٧

مناسبة نزول الآية الكريمة

أخرج الترمذى وحسنه والحاكم وصحّحه من طريق السّدى عن أبى صالح عن ابن عباس عن أمّ هانى بنت أبى طالب قالت : خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى فأنزل الله : إنّا أحللنا لك إلى قوله : اللاّتى هاجرن معك . فلم أكن أحلّ له ، لأنّى لم أهاجر[1] عن أمّ هانى قالت : نزلت فيَّ هذه الآية : وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاّتى هاجرن معك . أراد النبى ﷺ أن يتزوجنى فنهى عنّى إذ لم أهاجر[2] كنت من الطلقاء[3] ومع أنّ حديث أمّ هانىء شائع فقد جاء فى حقّه فى تفسير القرطبى[4] : « قال ابن العربى وهو ضعيف جدّاً . ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتجّ بها[5] قوله تعالى : وامرأة مؤمنة الآية . أخرج ابن سعد عن عكرمة فى قوله : وامرأة مؤمنة . الآية . قال : نزلت فى أمّ شريك الدّوسية[6] .

﴿ يا أيها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهنّ ﴾ . الآية الكريمة تخاطب الرّسول فى هذه الطريقة الكريمة التى ترددت فى السّورة الكريمة : « يا أيّها النبى » إنّ ربّ العزّة يخاطب نبيه الكريم بأنّه قد أحل له من النّساء أزواجه اللاّتى أعطاهن مهورهنّ وهى الأجور ههنا . كما قاله مجاهد وغير واحد[7] مجاهد .. أجورهنّ : صُدُقاتهن[8] عن ابن عباس : قوله : يا أيّها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك إلى آخر الآية . قال : حرم الله عليه ما سوى ذلك من النّساء . وكان قبل ذلك ينكح فى أى النّساء شاء . لم يحرّم ذلك عليه . فكان نساؤه يجدن من ذلك وجداً

---

(١) لباب النقول ص ١٧٦

(٢) لباب النقول ص ١٧٦ وانظر تفسير الطبرى ١٥/٢٢ والبحر المحيط ٢٤١/٧ والكشاف ٥٤٤/٢ وتفسير القرطبى ص ٥٢٨٧

(٣) تفسير الطبرى ١٥/٢٢

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٨٨

(٥) هكذا بالأصل ولفظ طريق يذكر ويؤنث .

(٦) لباب النقول ص ١٧٦

(٧) تفسير ابن كثير ٤٩٨/٣

(٨) تفسير الطبرى ١٥/٢٢ ولفظة صدقات جاءت فى الآية الكريمة الرابعة من سورة النساء فى قوله تعالى : وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ونحلة مصدر بمعنى عطية عن طيب نفس (الجلالين).

شديداً ، أن ينكح فى أى النّاس أحبّ . فلمّا أنزل الله : إنّى قد حرّمت عليك من النساء[1] سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه[2] والظاهر أن قوله : إنّا أحللنا لك أزواجك مخصوص لفظة أزواجك بمن كان فى عصمته كعائشة وحفصة ومن تزوجها بمهر[3] .

وإنما أطلق على المهر لفظ الأجر ، لأنّه أجر على الاستمتاع بالبُضع وغيره ، ممّا يجوز به الاستمتاع . وفى وصفهنّ باللاّتى آتيت أجورهنّ تنبية على أنّ الله اختار لنبيه الأفضل والأولى . لأنّ إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيره ، ليتفصى الزّوج عن عهدة الدّين ، وشغل ذمته به . ولأنّ تأخيره يقتضى أنّه يستمتع به مجّانا دون عوض تسلمته . والتعجيل كان سنة السلف . لا يعرف منهم غيره . ألا ترى إلى قوله عليه السّلام لبعض الصّحابة حين شكا حالة التزوج فأين درعك[4] الحطمية ؟[5] ويقول الزمخشرى[6] : « قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأذكى . كما اختصه بغيرها من الخصائص وآثره بما سواها من الأثر وذلك أنّ تسمية المهر فى العقد أولى وأفضل من ترك التسمية . وإن وقع العقد جائزاً ، وله أن يماسّها وعليه مهر المثلى إن دخل بها . والمتعة إن لم يدخل بها . وسوق المهر إليها عاجلا أفضل من أن يسميه ويؤجله . وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ومالا يعرف بينهم غيره » ويقول القرطبى[7] : « وقيل المراد أحللنا لك أزواجك أى الكائنات عندك . لأنّهنّ قد اخترنك على الدّنيا والآخرة . قاله الجمهور من العلماء ، وهو الظّاهر . لأنّ قوله : آتيت أجورهنّ ماض . ولا يكون الفعل الماضى بمعنى الاستقبال

---

(١) فى الأصل الناس وفى غير هذا الموضع من تفسير الطبرى النساء .
(٢) تفسير الطبرى ١٧/٢٢ وانظر البحر المحيط ٢٤١/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٢٨٩
(٣) البحر المحيط ٢٤١/٧
(٤) يتفصى بمعنى يتخلص القاموس
(٥) الدّرع الحطمية نسبة إلى رجل اسمه حطمة بضم الحاء وفتح الطاء والميم . جاء فى القاموس : وحطمة بن محارب كان يعمل الدروع . والصحابى هو على رضى الله عنه . وانظر الإصابة ٣٧٧/٤ ترجمة « فاطمة الزهراء » .
(٦) البحر المحيط ٢٤١/٧
(٧) الكشاف ٥٤٤/٢
(٨) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٨

إلاّ بشروط » ويقول كذلك[1] : « لمّا خير رسول الله ﷺ نساءه فاخترنه ، حرم عليه التزوج بغيرهنّ والاستبدال بهنّ مكافأة لهنّ على فعلهنّ . والدّليل على ذلك قوله تعالى : **لا يحلّ لك النّساء من بعد** . الآية .

ونحن نرى رأى جمهور العلماء من كون الحديث فى الآية الكريمة عن أزواجه ﷺ اللاّتى دخل بهنّ فعلا وكنّ تحت عصمته . وقد تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة . ستّا من قريش . خديجة وعائشة وحفصة وأمّ حبيبة وسودة وأم سلمة . وثلاثا من بنى عامر بن صعصعة . وامرأتين من بنى هلال بن عامر . ميمونة بنت الحارث . وهى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ وزينب أمّ المساكين . وامرأة من بنى بكر بن كلاب من القرظيات وهى التى اختارت الدّنيا . وامرأة من بنى الجون وهى التى استعاذت منه . وزينب بنت جحش الأسدية . والسبيتين صفيّة بنت حيى بن أخطب . وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية[2] .

قوله تعالى : وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك،أى وأباح لك التسرى ممّا أخذت من المغانم . وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوّجهما . وملك ريحانة بنت شمعون النضريّة ومارية القبطية[3] ويقول الطبرى[4] : « وأحللنا لك إماءك اللاتى سبيتهنّ فملكتهنّ بالسباء وصرن بفتح الله عليك من الفيء » . والزمخشرى فى الكشّاف فى سبيل الإجابة عن السّؤال الذى طرح :ما فائدة هذه التخصيصات من كون ما ملكت يمينه ﷺ عن طريق ما أفاء الله تعالى عليه ؟ وفى سبيل توضيح جوابه الأوّل المجمل فى القول : قد اختار الله لرسوله الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأذكى كما اختصه بغيرها من الخصائص وآثره بما سواها من الأثر يقول[5] : « وكذلك الجارية إذا كانت سبية **ما**لكها وخطبة سيفه ورمحه وممّا غنّمه الله من دار الحرب ، أحلّ وأطيب ممّا يشترى من شق الجلب[6] والسبى على ضربين سبى طيبة[7] وسَبْى نجدة[8] . الطيبة ما سبى من أهل الحرب . وأمّا من كان له

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٩٩

(٤) تفسير الطبرى ٢٢/١٥

(٥) الكشّاف ٢/٥٤٤

(٦) الجلب محرّكة ماجلب من خيل أو غيرها كالجلبية والجلوبة والجمع أجلاب (القاموس) .

(٧) سبى طيبة كعنبة أى بلا غدر ونقض عهد (القاموس) .

(٨) الخبثة بالكسر ، فى الرّقيق ألاّ يكون طيبة أى سبى من قوم لا يحل استرقاقهم (القاموس) .

عهد فالمسبى منه سبى خبثه . ويدل عليه قوله تعالى : ممّا أفاء الله عليك . لأنّ فىء الله لا يطلق إلاّ على الطيب دون الخبيث . كما أنّ رزق الله يجب أن يكون إطلاقه على الحلال دون الحرام.ويقول القرطبى[1] : « أحلّ الله تعالى السرارى لنبيه ﷺ ولأمته مطلقا ... وقوله : ممّا أفاء الله عليك ، أى ردّه عليك من الكفّار . والغنيمة قد تسمى فيئا ، أى ممّا أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة » .

والفىء الغنيمة والخراج[2] وهو مأخوذ من فاء يفىء إذا رجع يقال : فئت الغنيمة واستفأت وأفاءها الله تعالى علىّ[3] كما يطلق على المال الّذى أخذه المسلمون من أعدائهم دون قتال[4] وهو الّذى ذكره سبحانه فى قوله عزّ من قائل[5] : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكنّ الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ وأصل الإيجاف سرعة السير والرّكاب الإبل التى يسافر عليها لا واحد لها من لفظها . أى ما سقتم ولا حرّكتم خيلاً ولا إبلا . أى لم يعدّوا فى تحصيله خيلا ولا إبلا . بل حصل بلا قتال[6] .

وواضح أنّ الآية الكريمة تشير إلى ملك اليمين ممّا أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ . وبذلك هى تأخذ بسبب من الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمد عليه الصّلاة والسلام . وهى الآية الكريمة الوحيدة فى القرآن الكريم كله تقريبا ، التى تبين طريقة معاملة المسلمين لأسرى الخصوم . قال تعالى[7] : ﴿ **فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منا بعد وإمّا فداءً حتى**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٩

(٢) القاموس

(٣) القاموس

(٤) فقه السنة ٣/٩٢

(٥) سورة الحشر ٦ ، ٧

(٦) فقه السنة ٣/٩٢

(٧) سورة محمد ٤

تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . والّذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ .

إنّه من المعروف أنّ الإسلام دين السّلام . ومن المعروف كذلك أنّ خصومه يستغلون دائماً وأبدا هذا الجنوح فى الإسلام إلى السّلام ، كى يسوموا المسلمين سوء العذاب ، وكى يعملوا على اقتلاع شجرة الإسلام من جذروها . ومن أوضح الأمثلة على ذلك عمل كفار مكة . فقد استمر المصطفى ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعوهم فى أثنائها إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة . ولا يزدادون بمرور الأيام إلاّ تمادياً فى الشّر والعدوان . حتى اضطر المسلمون بتوجيه من المصطفى ﷺ وإيحاء إليه من الله تعالى أن يبحثوا عن متنفس لهم فى الحبشة التى هاجروا إليها مرتين وإلى المدينة المنورة أخيرا . وأذن الله تعالى للمصطفى ﷺ بأن يهاجر كذلك . وإنّ المسلمين الذين آنسوا فى أنفسهم ، قبل الهجرة وخاصة بعد بيعة العقبة ، القدرة على أن يدافعوا عن أنفسهم ، قد طلبوا الإذن بأن يدافعوا عن أنفسهم وكان الرّد عليهم كما جاء فى القرآن الكريم[1] : ﴿ **كفوا أيديكم وأقيمو الصّلاة وآتوا الزكاة** ﴾ والمعروف أنّ المصطفى ﷺ وصل إلى المدينة المنورة مهاجراً فى يوم الأثنين لليوم الثانى من شهر ربيع الأوّل الموافق ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ هـ[2] حتّى إذا خلت اثنتا عشرة ليلة من شهر صفر فى السنة الثانية من الهجرة[3] أذن للمصطفى ﷺ وللمسلمين فى الدّفاع عن أنفسهم وذلك فى قوله تعالى من سورة الحج[4] : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ ثمّ أذن للمسلمين أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم . وذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة[5] : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين**

---

(١) سورة النساء ٧٧

(٢) نور اليقين للخضرى ص ٩٥

(٣) نور اليقين ص ١١٢

(٤) الآيات ٣٩ - ٤١

(٥) الآية ١٩٠

يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين » ثم أذن للمسلمين فى أن يقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة ، وذلك فى قوله تعالى من سورة براءة[1] : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أنّ الله مع المتقين** ﴾ . وقال تعالى[2] : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ .

ومعروف أنّ ثمّة هدفا ساميا نبيلا هو الذى يسعى إليه المسلمون فى سلمهم وحربهم ، ألا وهو الدّعوة إلى سبيل الله تعالى ، كى يختار عباد الله تعالى بحرية مطلقة ، ودون أدْنى تأثير من أى قوة فى الأرض ، الدّين الذى يرتضون . وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ **لا إكراه فى الدّين قد تبين الرّشد من الغى** ﴾ إنّ المسلمين لا يكرهون أحداً على اعتناق الإسلام ، لأنّ الأمر عائد إلى سريرة الإنسان ودخيلته التى لا يعلمها ولا يحكمها إلاّ الله تعالى . ومِنْ يرد الله به خيراً يشرح صدره للإسلام كما نصّ على ذلك القرآن الكريم . وفى الوقت نفسه لا يسمح المسلمون لأى قوة فى الأرض أن تعترض طريقهم لإيصال ما ائتمنهم الله تعالى عليه ، من دين رضيه وأكمله لهم وأتمّ به النعمة عليهم ، إلى كلّ أمم الأرض .

إن المسلمين حينما يسمح لهم بالدعوة إلى الله تعالى فإنّ هذا هو منتهى ما يطمحون إليه . ومن دخل فى الإسلام أصبح أخا للمؤمنين وقد قال تعالى[4] : ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ أمّا حينما يرفض القوم الدّخول فى الإسلام وهو أوّل طلبات المسلمين وأهمها ويصرون على البقاء على دينهم ، فإنّ المسلمين يتحوّلون إلى طلبين آخرين . فى تحقق أوّلهما غنى عن اللجوء إلى ثانيهما .

أمّا الطلب الأوّل فهو دفع الجزية ، مقابل حماية المسلمين للذميين . فإن عجز المسلمون عن حماية الذميين لم يأخذوا الجزية وإن أخذوها وعجزوا عن الدّفاع عن الذميين أعادوا الجزية إلى أصحابها[5] والجزية على الذميين مقابل فرض الزّكاة على

---

(١) الآية ٣٦
(٢) سورة براءة ٢٩
(٣) سورة البقرة ٢٥٦
(٤) سورة الحجرات ١٠
(٥) انظر هنا نظرية الإسلام وهديه للمودودى ص ١٢٣

المسلمين[1] وشروط الجزية الذّكورة والتكليف والحرية . فلا تجب على امرأة ولا صبى ولا عبد ولا مجنون[2] . والجزية دينار أو ما يقابله . روى أصحاب السنن عن معاذ رضى الله عنه أنّ النبى ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله من المعافرة[3] ثمّ زاد فيها عمر رضى الله عنه فجعلها أربعة دنانير على أهل الذّهب . وأربعين درهما على أهل الورق[4] فى كلّ سنة[5]

فإذا أصر الخصوم على البقاء على دينهم وعلى عدم دفع الجزية للمسلمين ، فقد أذن الله تعالى للمسلمين أن يبذلوا أرواحهم ودماءهم فى سبيل الدّين الذى رضيه الله تعالى لعباده ، وأن يقاتلوا الخصوم ، شريطة أن يعطى المسلمون الذين يدعونهم إلى الإسلام فرصة ثلاثة أيّام[6] كى يروا رأيهم . فإذا انقضت الثلاثة الأيّام وأصرّ الخصوم على موقفهم قاتلهم المسلمون كما أذن الله تعالى لهم . وإنّ الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد عليه السّلام لتبين طريقة معاملة المسلمين لأسرى الخصوم . قال تعالى ﴿ **فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منا بعد وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ ضرب الرّقاب مصدر بدل من اللفظ بفعله[7] أصله فاضربوا الرّقاب ضربا . فحذف الفعل وقدّم المصدر . فأنيب منابه مضافا إلى المفعول . وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنّك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التى فيه[8] ومعنى : أثخنتموهم ، أوهنتموهم بالجراح ، وأثقلتموهم بسببها حتى أذهبتم عنهم النهوض[9] يقال : أثخنته الجراحة أوهنته[10] وفى حديث أبى جهل : وكان قد أثخن أى أثقل بالجراح[11] والوثاق بالفتح

---

(١) فقه السنة ٣/٦٧

(٢) فقه السنة ٣/٦٩

(٣) فقه السنة ٣/٦٩ والمعافرة ثياب باليمن وهى مأخوذة من معافرة وهو حى من همدان .

(٤) الورق بكسر الرّاء الفضة .

(٥) فقه السنة ٣/٧٠

(٦) فقه السنة ٣/٥١

(٧) تفسير الجلالين .

(٨) الكشاف ٣/١٢٧

(٩) انظر اللسان ثخن

(١٠) اللسان « ثخن »

(١١) اللسان « ثخن »

والكسر اسم ما يوثق به[1] والمراد أنّ على المسلمين لله ربّ العالمين أن يحكموا وثاق أسرى الخصوم الّذين أثخنتهم الجراح كيلا يفلتوا . ويلحق بهؤلاء كلّ من وقع فى كلّ الصور أسيراً بأيدى المسلمين . ومنا وفداءً مصدران منصوبان بفعليهما مضمرين . أى فإمّا تمنون منًّا وإمّا تفدون فداءً[2] .

ويمكن أن يقال بشأن ما جاء بحق الأسرى فى الآية الكريمة ما يلى :

١ – إنّه باستعراض آراء العلماء فى الآية الكريمة تبين أنّ جمهور العلماء يرى أنّ الآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام محكمة ، وأنّ الإمام مخير فى كلّ حال . وقد قال بهذا الرّأى كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم . وهو الاختيار كما يقول القرطبى فى تفسيره[3] .

٢ – لقد قدمت الآية الكريمة فى الذّكر المن على الفداء . وكأن هذه الحالة أفضل الحالتين . فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الآية الكريمة لم تشر إلى الحالتين الأخريين للأسير ، وهما الاسترقاق والقتل . عرفنا قيمة المنّ على الأسير الغالبة وكونها أفضل الحالات الأربع التى طبقها كلها المصطفى ﷺ .

٣ – المعروف أنّ الإسلام شرّع للعتق ولم يشرع الرّق . فقد كان الرق آنذاك قانونا عالميا معترفا به من قبل جميع الأمم . ولم يكن ثمّة إحساس فى أى مكان أو زمان قبل الإسلام بالتفكير فى ضرورة رفع مكانة الرّقيق من مستوى الأشياء إلى مستوى الإنسان . وجاء الإسلام كى يعيد إلى هذا الرّقيق إنسانيته . فما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى عتق الرّقاب . إنّ عتق الرّقاب من الكفارات لبعض الذنوب ومن الحسنات التى يتقرب بها إلى الله تعالى . جاء مثلاً فى سورة النّساء[4] قوله تعالى : **﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصّاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من**

---

(١) الكشاف ١٢٧/٣ والبحر المحيط ٧٤/٨

(٢) الكشاف ١٢٧/٣ وتفسير القرطبى ص ٦٠٤٦

(٣) ص ٦٠٤٨

(٤) الآية ٣٦

كان مختالا فخورا﴾ وجاء فى الحث على فك الرّقاب قوله تعالى[1] : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبه ﴾ جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة فقال : عتق النسمة وفك الرّقبة. فقال : يا رسول الله : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا . عتق النسمة أن تنفرد بعتقها . وفك الرّقبة أن تعين فى ثمنها[2] وجاء فى كونه كفارة فى اليمين قوله تعالى[3] :﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ . والمطلوب مساعدة من أراد فك رقبته من الأرقاء . فذلك أحد مصارف الزكاة . قال تعالى[4] : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرّقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ وقال تعالى[5] :﴿ والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ وجاء فى القتل الخطأ قوله تعالى[6] : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلاّ خطئا . ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودّية مسلمة إلى أهله إلاّ أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾.

إنّ الإسلام كعادته فى القضايا الاجتماعية المتغلغلة فى أعماق المجتمعات كالرّبا وشرب الخمرة والتعامل بالرّقيق يؤمن بالحلول المتدرجة . فهو مثلا لم يحرّم الرّبا ولا الخمرة دفعة واحدة ، لتمكن هذين الدّاءين من المجتمع العربى آنذاك . وفيما يتصل بالرّق الذى كان معترفا به فى كل مكان ، الإسلام شرّع لعتق الرّقيق . وقد نجح الإسلام فيما أراد ، بينما لم تنجح أمريكا مثلا فى القضاء على الرّقيق حينما أرادت فى عهد إبراهام لنكولن أن تتخلص منه دفعة واحدة ، لعدم استعداد الرّقيق

---

(١) سورة البلد ١١ - ١٣
(٢) فقه السنة ٣/٩٠
(٣) سورة المائدة ٨٩
(٤) سورة براءة ٦٠
(٥) سورة النور ٣٣
(٦) سورة النساء ٩٢

لاستعادة شخصيته الذّائبة . إذ ما لبث أن عاد الرّقيق يرجو ويلح فى الرّجاء أن يقبله مرة أخرى من حرّره من رق الجسد لأنه عاجز عن كسب لقمة عيشه . بل إنّ الزنوج فى أمريكا لم يتحرروا وحتى يوم الناس هذا من حقيقة الرّق .

وأنت تستطيع أن تتبين قمة استرقاق الرّجل الأبيض للزنجى فى تمام الساعة الحادية عشرة من صباح كلّ يوم أحد فى الكنيسة فى البيت الذى يفترض فيه أنّه إنّما رفع ليذكر فيه اسم الله تعالى ! وكيف يحدث هذا ولماذا ؟ يحدث لأنّ الرّجل الأبيض الذى له كنيسته الخاصة به ، إذا سمح لغير الأبيض بارتياد الكنيسة المخصصة للجنس الأبيض ، فينبغى أن يكون غير الأبيض فى مؤخرة الصفوف ، وتبدو تلك التفرقة الرّهيبة فى أوجها تمام السّاعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد !(١) .

انظر فى المقابل إلى آخر وصية له ﷺ قبيل مغادرته هذه الحياة ولحوقه بالرّفيق الأعلى : كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة : الصّلاة وما ملكت أيمانكم ، حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه . يقول علىّ رضى الله عنه : أوصى رسول الله ﷺ بالصّلاة والزّكاة وما ملكت أيمانكم »(٢) .

وحينما طبق هذا المنهج الإسلامى لم يبق فى كلّ ديار الإسلام شخص مسترق واحد .

ولماذا أبقى الإسلام هذا المنفذ الوحيد للرّق ؟ ولماذا لم يحرم القرآن الكريم بصريح العبارة الرّق كما حرم الربا والخمرة والميسر وما إلى ذلك ؟ لأنّ أطراف النزاع الأخرى فى صراعها مع المسلمين كانت تسترق المسلمين الذين يقعون فى أيديهم أسرى . فمن غير المنتظر أن يحرم الإسلام على المسلمين أن يسترقوا أسراهم فى الوقت الذى يسترق خصوم الإسلام أسرى المسلمين . ومع كلّ ذلك فإنّ الإسلام قد شرع للعتق كما رأينا . وحينما طبقت تعاليم الإسلام ، وحينما لم يعد الخصوم يسترقون أسرى المسلمين لم يوجد أحد من الرقيق فى كل بلاد الإسلام .

---

(١) انظر هنا منظمة الايجا محمد الأمريكية د . عبد الوهاب أبو سليمان ص ١٣ وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه عباس محمود العقاد ص ٢٢٤

(٢) السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص ٣٤٣

وإليك هذا الدّليل على كون الخصوم حتى قرون قلت ، كانوا يسترقون أسرى المسلمين . جاء فى التحقيق المصور عن جزيرة مالطة فى مجلة العربى العدد ٢٤٣ فى الصفحة التاسعة والثمانين ، اقتباس من كتاب بريطانى بعنوان مالطة قبل حكم الفرسان جمع مادّته لوتريل يقول : « شهدت مالطة عام ١٢٢٤ موجة من نفى المسلمين إلى خارجها . وفى هذه الفترة أقيمت الكنائس والقصور والقلاع ، بواسطة الأسرى الذين يمثل المسلمون عدداً كبيراً منهم . والذى عرف تحديداً أن من بينهم ٤٨ مسلما من جربة فى تونس . وسجلت الوثائق بيع طفلة مسلمة تبلغ من العمر عشرة أعوام بيضاء لوحتها الشمس فى جنوة عام ١٢٤٨ » .

إنّ المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة . وقد قال الله تعالى فى حقه[1] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ والذى تعتبر سنته المطهرة تبيينا للقرآن الكريم ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ قد طبق كلا من الحالتين اللتين أشارت إليهما آية سورة محمد عليه الصّلاة والسّلام ، وهما المنّ والفداء ، والحالتين لم تشر إليهما الآية الكريمة وهما القتل والاسترقاق .

وهكذا يتبين أنّ أفضل الحالات الأربع فى معاملة المسلمين للأسرى بنصّ القرآن الكريم هى المنّ . وبما أنّه لا يوجد الآن مسترق واحد فى كلّ ديار الإسلام ، فهذا معناه أنّ باب الرّق موصد . وأن المسئول عن فتحه مستقبلا هم خصوم الإسلام فيما لو فرض أنّهم استرقوا أسرانا . إنّ المنفذ الوحيد للاسترقاق جائز الانفتاح مستقبلا فيما لو فرض أن كرّر خصوم الإسلام أعمالهم سلفاً . حينما كانوا يسترقون أسرى المسلمين . إنّ الإمام من حقه أن يختار ما يراه الأصلح للمسلمين ، وإنّ الخصوم حينما يمنّون على أسرانا نمنّ على أسراهم . وحينما يفادون أسرانا نفادى أسراهم . وحينما يقتلون أسرانا نقتل أسراهم . وحينما يسترقّون أسرانا نسترق أسراهم . إنّ المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة عمل بكل ذلك . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك** ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب ٢١

(٢) سورة النحل ٤٤

ونتحوّل إلى الجزئية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ **وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك** ﴾ .

يقول ابن كثير[1] : « هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط . فإنّ النصارى لا يتزوجون المرأة إلاّ إذاكان الرّجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا . واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته . فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطّاهرة بهدم إفراط النصارى . فأباح بنت العم والعمة ،وبنت الخال والخالة . وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت . وهذا شنيع فظيع » . ويقول القرطبى[2] : « وبنات عمك وبنات عمّاتك . أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاّتى آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك على قول الجمهور » و « ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فرداً والعمات جمعا . وكذلك قال : خالك وخالاتك . والحكمة فى ذلك أنّ العمّ والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والرّاجز . وليس كذلك العمّة والخالة . وهذا عرف لغوى . فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال . وهذا دقيق فتأملوه قاله ابن العربى »[3] ويقول الطبرى[4] : « فأحلّ الله له ﷺ من بنات عمّه وعمّاته وخاله وخالاته المهاجرات معه منهنّ دون من لم يهاجر منهنّ معه » « والتخصيص باللاّتى هاجرن معك ، لأنّ ما هاجر معه من قرابته غير المحارم أفضل من غير المهاجرات . وقيل شرط الهجرة فى التحليل منسوخ . وحكى الماوردى فى ذلك قولين : أحدهما أنّ الهجرة شرط فى إحلال الأزواج على الإطلاق،والثانى أنه شرط فى إحلال قرابات المذكورات فى الآية دون الأجنبيات . والمعية هنا الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة فيها فيقال : دخل فلان معى وخرج معى . أى كان عمله كعملى وإن لم يقترنا فى الزّمان . ولو قلت : فخرجنا معا ، اقتضى المعنيان الاشتراك فى الفعل والاقتران فى الزّمان[5] ويقول القرطبى[6] : « لا يحلّ لك منهنّ إلاّ من هاجر إلى المدينة لقوله تعالى[7] : ﴿ **والّذين**

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٩/٣

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٩

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٠

(٤) تفسير الطبرى ١٥/٢٢

(٥) البحر المحيط ٢٤١/٧ انظر القرطبى ٥٢٩٠

(٦) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٩

(٧) سورة الأنفال ٧٢

آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ . ومن لم يهاجر لم يكمل . ومن لم يكمل لم يصلح للنبى ﷺ الذى كمل وشرف وعظم ﷺ » .

ونتحوّل إلى الجزئية الكريمة التّالية التى تتحدّث عن الواهبة نفسها للنبى ﷺ . قال تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

من النّسوة اللاّتى أحلّ الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ ، الواهبة نفسها له ﷺ إن أراد عليه الصّلاة والسّلام أن يتزوجها . وهذه ميزة خاصة به ﷺ دون سائر المؤمنين وهذه الجزئية الكريمة من الآية الكريمة تبين ذلك . فالقول وامرأة ، معطوف على ما قبله أى وأحللنا لك امرأة مؤمنة . يقول القرطبى[1] : « وامرأة مؤمنة ، عطف على أحللنا . والمعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق »ويقول الزمخشرى[2] : « وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولا تطالب مهرا من النّساء المؤمنات . إن اتفق ذلك ولذلك نكرها » ويقول أبو حيّان[3] : « وامرأة مؤمنة . قال ابن عباس وقتادة : هى ميمونة بنت الحارث[4] وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أمّ شريك[5] وقال عروة والشعبى هى زينب بنت خزيمة أمّ المساكين امرأة من الأنصار[6] وقال عروة أيضاً هى خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمية »[7] روى البخارى عن عائشة أنّها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللاّئى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ[8] : « أخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلى أنّ أمّ شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبى ﷺ وكانت جميلة فقبلها . فقالت عائشة : ما فى امرأة حين تهب نفسها لرجل خير . قالت أمّ شريك فأنا تلك . فسمّاها الله مؤمنة فقال : وامرأة مؤمنة إن وهبت

---

(١) تفسير القرطبى ٥٢٩٠

(٢) الكشاف ٢/٥٤٤

(٣) البحر المحيط ٧/٢٤١

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠ وتفسير الطبرى ٢٢/١٦

(٥) انظر تفسير الطبرى ٢٢/١٧

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠

(٧) البحر المحيط ٧/٢٤١ وانظر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠

(٨) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٠

نفسها للنبى . فلما نزلت الآية قالت عائشة : إنّ الله يسرع لك فى هواك[1] و « مؤمنة يدلّ على أنّ الكافرة لا تحلّ له »[2] عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كنّا نتحدّث أنّ أمّ شريك كانت وهبت نفسها للنبى ﷺ . وكانت امرأة صالحة[3] روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنّها قالت: كنت أغار على اللاّتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أما تستحى المرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى: ترجى من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء . فقلت : ما أرى ربّك إلاّ يسارع فى هواك[4] وقد علق القرطبى[5] بشأن الواهبات قائلا : « فدلّ هذا على أنهنّ كثير غير واحدة والله تعالى أعلم » يقول الطبرى[6] : « واختلف أهل العلم فى التى وهبت نفسها لرسول الله ﷺ من المؤمنات . وهل كانت عند رسول الله ﷺ امرأة كذلك . فقال بعضهم لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلاّ بعقد نكاح أو ملك يمين . فأمّا بالهبة فلم يكن عنده منهن أحد » عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنّه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له . وإن كان ذلك مباحا له ومخصوصا به ، لأنّه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : إن أراد النبى أن يستنكحها أى إن اختار ذلك[7] .

وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السّلام أنّه قال لقومه[8] : ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم . وكقول موسى عليه السّلام[9] : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . وقال ههنا : وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى[10] وقد علق أبو حيّان

(١) لباب النقول ص ١٧٧
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٢
(٣) تفسير الطبرى ١٧/٢٢
(٤) تفسير القرطبى ٥٢٩٠
(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٠
(٦) تفسير الطبرى ١٧/٢٢
(٧) تفسير ابن كثير ٥٠٠/٣
(٨) سورة هود ٣٤
(٩) سورة يونس ٨٤
(١٠) تفسير ابن كثير ٤٩٩/٣

على هذين الشرطين[1] : « وقرأ الجمهور وامرأة بالنصب إن وهبت بكسر الهمزة أى أحللناها لك ، إن وهبت ، إن أراد . فهنا شرطان .. والثانى فى معنى الحال شرط فى الإحلال هبتها نفسها . وفى الهبة إرادة استنكاح النبى كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها ، لأن إرادته هى قبوله الهبة وما به تتم .. وإذا اجتمع شرطان فالثانى شرط فى الأوّل متأخر فى اللفظ متقدم فى الوقوع مالم تدل قرينة على الترتيب » وقال القرطبى[2] : « بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته ، ويرى الأكارم ردها هجنة فى العادة ووصمة على الواهب وإذاية لقلبه . فبين الله ذلك فى حق رسـوله ﷺ وجعله قرآنا يتلى ليرفع عنه الحرج ويبطل بُطْلَ الناس فى عادتهم و قولهم » .

« فإن قلت : لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى : نفسها للنبى إن أراد النبى ثمّ رجع إلى الخطاب قلت : للإيذان بأنّه ممّا خصّ به وأوثر . ومجيئه على لفظ النبى للدّلالة على أنّ الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة . وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته . واستنكاحها طلب نكاحها والرّغبة فيه »[3] ويقول القرطبى[4] : « أن يستنكحها أى ينكحها . يقال نكح واستنكح مثل عجب واستعجب وعجل واستعجل . ويجوز أن يرد الاستنكاح بمعنى طلب النّكاح أو طلب الوطء . وخالصة نصب على الحال ، قاله الزّجاج » وقال الزمخشرى[5] : « خالصة مصدر مؤكد ، كوعد الله وصبغة الله . أى خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا .. والدّليل على أنّها وردت فى أثر الإحلالات الأربع مخصوصة برسول الله ﷺ على سبيل التوكيد لها قوله : قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم بعد قوله : من دون المؤمنين وهى جملة اعتراضية » « قال عكرمة : أى لا تحلّ الموهوبة لغيرك . ولو أنّ امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحلّ له حتى يعطيها شيئاً . وكذا قال مجاهد والشعبى وغيرهما : أى أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل

---

(١) البحر المحيط ٢٤١/٧

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٢

(٣) الكشاف ٥٤٥/٢

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٩٥

(٥) الكشاف ٥٤٥/٢

فإنّه متى دخل بها وجب عليها مهر مثلها . كما حكم به رسول الله ﷺ فى بروع بنت واشق[1] لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفى عنها زوجها . والموت والدّخول سواء فى تقرير المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبى ﷺ . فأمّا هو عليه الصّلاة والسلام فإنّه لا يجب عليه للمفوضة شىء ولو دخل بها . لأنّ له أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود . كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها . ولهذا قال قتادة فى قوله : خالصة لك من دون المؤمنين ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلاّ للنبى ﷺ »[2] ويقول أبو حيّان[3] : « وقرأ الجمهور خالصة بالنصب . وهو مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله . أى أخلص لك إخلاصا . أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا . ويجىء المصدر على فاعل وفاعله .. والظاهر أن قوله : خالصة لك من صفة الواهبة نفسها لك . فقراءة النصب على الحال . قاله الزّجاج . أى أحللناها خالصة لك . والرّفع خبر مبتدأ . أى هى خالصة لك . أى هبة النساء أنفسهن مختص بك . لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك . وأجمعوا على أنّ ذلك غير جائز لغيره عليه السّلام » .

ونتحوّل إلى الجزئية الكريمة التّالية قال تعالى : ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم** ﴾

« أى من حصرهم فى أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء . واشتراط الولىّ والمهر والشهود عليهم وهم الأمّة . وقد رخصنا لك فى ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه »[4] يقول تعالى ذكره : قد علمناما فرضنا على المؤمنين فى أزواجهم إذا أرادوا نكاحهنّ ممّا لم نفرضه عليك وما خصصناهم به من الحكم فى ذلك دونك . وهو أنا فرضناعليهم أنّه لا يحل لهم عقد نكاح على حرّة مسلمة إلا بولى عصبة وشهود عدول . ولا يحلّ لهم منهنّ أكثر من أربع »[5] : قتادة قال : إنّ مماّ فرض الله عليهم أن لا نكاح إلاّ بولىّ وشاهدين »[6] ويقول القرطبى[7] : « أحل الله تعالى

---

(١) ترجمتها فى الإصابة ٤/٢٥١
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠
(٣) البحر المحيط ٧/٢٤٢
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٥٠٠
(٥) تفسير الطبرى ٢٢/١٧
(٦) تفسير الطبرى ٢٢/١٧
(٧) تفسير القرطبى ص ٥٢٨٩

السرارى لنبيه ﷺ ولأمته مطلقا . وأحل الأزواج لنبيه عليه الصّلاة والسلام مطلقا . وأحله للخلق بعدد » ويقول أبو حيّان[1] : « وما ملكت أيمانهم : قيل : لايثبت الملك إلاّ إذا كانت ممّن يجوز سبيها » وقد تكلمنا عن ذلك من قبل .

ونتحوّل إلى الجزئية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾ الحرج هو الإثم والضيق . والمعنى : لكيلا يكون عليك إثمّ وضيق فى نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف التى أبحت لك نكاحهن من المسميات فى هذه الآية[2] وقال الزمخشرى[3] : « ومعنى لكيلا يكون عليك حرج ، لئلا يكون عليك ضيق فى دينك حيث اختصصناك بالتنزيه واخيتار ما هو أولى وأفضل . وفى دنياك حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات ، وزدناك الواهبة نفسها » . وقال ابن عطية : لكيلا يكون ، أى بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح ، لكيلا يكون عليك حرج ويظن بك أنك قد أثمت عند ربّك . ثم آنس جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته[4] ويقول القرطبى[5] : « لكيلا يكون عليك حرج أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السعة . أى بيّنا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح لكيلا يكون عليك حرج .. أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربك فى شىء . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى : **وكان الله غفورا رحيما** » .

وبشأن هذه الجزيئة الأخيرة فى الآية الكريمة « **وكان الله غفورا رحيما** » يقول الطبرى[6] : « وكان الله غفورا لك ولأهل الإيمان بك رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب منهم سلف بعد توبتهم منه » ويقول الزمخشرى[7] : « وكان الله غفورا للواقع فى الحرج إذا تاب . رحيما بالتوسعة على عباده » قال عز من قائل : ﴿ **يا أيها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك**

---

(١) البحر المحيط ٢٤٣/٧

(٢) تفسير الطبرى ١٨/٢٢ وانظر البحر المحيط ٢٤٣/٧ وتفسير القرطبى ٥٢٩٦

(٣) الكشاف ٥٤٥/٢

(٤) البحر المحيط ٢٤٣/٧

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٦

(٦) تفسير الطبرى ١٨/٢٢

(٧) الكشاف ٥٤٥/٢

اللاّتى هاجرن معك وأمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ﴿.

والآية الكريمة التالية ، وإن كان المصطفى ﷺ محورها ، فإنّ للمؤمنين المتقين حظهم الموفور فى نهايتها ، ممّا تضمنته من فضل الله تعالى العميم ورحمته جلّ وعلا البر الرّحيم . قال تعالى خطابا له ﷺ :﴿ **ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك،ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم . وكان الله عليما حليما ﴾**

وواضح أنّ الآية الكريمة امتداد للآية الكريمة السّابقة عليها ،. إذ أنهما تبينان بعض مظاهر فضل الله تعالى على خير خلقه محمّد بن عبد الله ﷺ ، خاتم الأنبياء والمرسلين . كى يتمكن ﷺ من تأدية حقوق النبوة وتبليغ واجبات الرّسالة . والآية الكريمة تبين له ﷺ بشأن علاقته بزوجاته أنه جلّ وعلا رفع عنه الجناح[1] بمعنى الإثم . فله ﷺ مطلق الحرية فى الطريقة التى يقسم بها لياليه على زوجاته . إنّ له أن يؤخر من شاء منهن فى القسم ، وأن يضمّ إليه من شاء منهن . وإذا أراد من عزل منهن فله مطلق الاختيار إنّ هذه الحرية فى القسم ميزة خص الله تعالى بها رسوله الكريم . وحينما يعلم نسوته ﷺ أنّ تلك الحرية له ﷺ فى القسم مشيئة الله تعالى ، وهنّ المؤمنات الصابرات المجاهدات فى سبيله جل وعلا ، اللاّتى وصل عن طريقهن رضوان الله تعالى عليهن أجمعين زهاء ثلث هذا الدّين ، فذلك أدعى لأن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين جميعا بما آتاهنّ المصطفى ﷺ الإنسان الكامل . إنّ هذه الميزة خصّ بها المصطفى ﷺ . فليس لأحد من أمته ﷺ إلاّ أن يكون عادلا فى القسم للزوجات فيما يملك . وأمّا مالا يملك من ميل القلب فلا حرج على الزوج فى ذلك ، شريطة أن يكون عادلاً مع زوجاته فى كلّ ما يملك . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما فى القلوب ومن ذلك ميلها لبعض الزّوجات حليم على من تجاوز ميل القلب إلى ما وراءه لا يعاجله بالعقوبة . فعلى غير العادل مع زوجاته وغير المنصف فيما يملك . أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى توبة نصوحا . وإنّ من أهمّ مظاهر صدق

---

(١) والجناح بضم الجيم الإثم . جنح يجنَحُ ويجنُح ويجنح جنوحًا مال . القاموس .

التوبة العدل فيما يملك بشأن الزوجات . وبعد هذه النظرة الأولى السريعة للآية الكريمة ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى تسير وفق ترتيب المعانى فى الآية الكريمة .

فما هى مناسبة نزول الآية الكريمة ؟ أخرج الشيخان عن عائشة أنها كانت تقول : أما تستحى المرأة أن تهب نفسها فأنزل الله : ترجى من تشاء الآية . فقالت عائشة : أرى ربّك يسارع لك فى هواك[1] عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغار على اللاّتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها . فلما أنزل الله تعالى :ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك ، قلت : ما أرى ربّك إلاّ يسارع فى هواك[2] وعن معاذة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ... فقلت لها ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول له : إن كان ذلك إلىّ فإنّى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا[3] والمعروف أنّه ﷺ ، رغم رفع الجناح عنه فى القسم ، كان يشدّد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن تطبيبا لملوبهن ، ويقول : اللهم هذه قدرتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى قلبه ،لإ ثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله[4] .

وما معنى القول : ترجىء ؟ قال ابن عباس : ترجىء تؤخر[5] قرىء مهموزا وغير مهموز . وهما لغتان . يقال : أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته[6] جاء فى سورة براءة قوله تعالى[7] : **وآخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليم حكيم** ومرْجون بمعنى مؤخرون عن التوبة[8] وما معنى القول تؤوى ؟ تؤوى تضم . يقال : آوى إليه (ممدوة الألف) ضمّ إليه . وأوى (مقصورة الألف) انضم إليه[9]

---

(١) لباب النقول ص ١٧٧
(٢) صحيح البخارى ١٤٧/٦
(٣) صحيح البخارى ١٤٧/٦
(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٨
(٥) صحيح البخارى ١٤٧/٦
(٦) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٦
(٧) الآية ١٠٦
(٨) تفسير الجلالين
(٩) تفسير القرطبى ٥٢٩٦

قال مجاهد : تعزل بغير طلاق من أزواجك من تشاء وتؤوى إليك من تشاء . قال : تردّها إليك[1] وما معنى القول : ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك ؟ يقول الطّبرى[2] : « اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك : ومن نكحت من نسائك فجامعت ممّن لم تنكح فعزلته عن الجماع فلا جناح عليك » . والمعنى : « لا حرج عليك أن تترك القسم لهن . فتقدم من شئت . وتؤخر من شئت . وتجامع من شئت . وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس . ومجاهد والحسن . وقتادة . وأبى رزين . وعبد الرّحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . ومع هذا كان النبى ﷺ يقسم لهن . ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنّه لم يكن القسم واجبا عليه ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة[3] .

إن القول « فلا جناح عليك » معناه أنّ الله تعالى قد وضع عنه ﷺ الحرج فى القسم ، قال قتادة : فجعله الله فى حلّ من ذلك أنْ يدع من يشاء منهنّ ويأتى من يشاء منهن بغير قسم[4] وهنا نتبين أنّ المصطفى ﷺ الإنسان الكامل يختار الأولى والأفضل . قال الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثمّ يقول : اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حمّاد بن سلمة وزاد أبو داود بعد قوله : فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، يعنى القلب . وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات[5] يقول الطبرى[6] : « وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر مع ما جعل الله له من ذلك يسوى بينهن فى القسم إلاّ امرأة منهنّ أراد طلاقها فرضيت بترك القسم لها»وهذه المرأة هى سودة رضى الله عنها التى وهبت ليلتها لعائشة وقالت : لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك[7] .

---

(١) تفسير الطبرى ١٨/٢٢
(٢) تفسير الطبرى ٢٠/٢٢
(٣) تفسير ابن كثير ٥٠١/٣
(٤) تفسير الطبرى ١٨/٢٢
(٥) تفسير ابن كثير ٥٠١/٣
(٦) تفسير الطبرى ١٩/٢٢
(٧) الكشاف ٥٤٥/٢ والبحر المحيط ٢٤٣/٧ و ٢٤٤ وانظر تفسير الطبرى هنا ٢٤/٢٢ الذى نص على أن ما جرى لسودة كان قبل نزول آية التخيير .

وإذا كانت الآية الكريمة قد نصّت على ثلاث حالات معنية رفع ربّ العزة عن المصطفى ﷺ الحرج بشأنها ، فيما يتصل بالقسم لزوجاته ﷺ وذلك فى القول : ﴿ترجى من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فإنّ الآية الكريمة فى المقابل نصّت على ثلاث حالات حسنة لنساء المصطفى ﷺ رغبت فى أن يكنّ أقرب منها وأدنى إليها ﴿أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ وبتدبرنا لهذه الحالات الثلاث نستطيع أن نتبيّن تدرجها المستمر من الحسن إلى الأحسن وبالتالى فإنّ الحالة السابقة تعتبر موطئة للاّحقة . واللاّحقة تعتبر مترتبة على السابقة ومبنية عليها . إنّ قرة العين توطئة لذهاب الحزن . وإنّ ذهاب الحزن توطئة للرضا الذى نص على أن المقصود حصوله من قبل كل أزواج المصطفى ﷺ .

فما معنى قرّة العين من القول : ذلك أدْنى أن تقرّ أعينهن إنّه فى دراستنا المتأملة لسورة الفرقان سبق أن وقفنا عند قرّة العين بشأن قوله تعالى فى الآية الكريمة الرّابعة والسبعين ﴿**والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ وقلنا بشأنها[1] : « ولعلنا تبينا أنّ الآية الكريمة فى استعمالها القول « قرة أعين » قد راعت طريقة العرب فى التعبير ، بقصد تقريب المرامى البعيدة للعرب أوّلا ، الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، والذين اعتادوا ، حينما يتمنون قرب الشيء مصدر السعادة والطمأنينة لهم ، وهم سكان البيئة الحارة ، أن يربطوا به الدّعاء بأن يكون قرة للعين أى بردا لها وسلاما . لأن أعينهم تتأذى فى العادة بفعل حرارة البيئة . فما أشدّ حاجتهم لقرة العين التى يعنون بها برد الفؤاد وثلج الطمأنينة والسعادة واليقين . إن القول فى الآية الكريمة : « ذلك أدْنى أن تقرّ أعينهن » ذو علاقة بالقُرّ بضم القاف وهو البرد . يقال : قرّت عينه تقَرّ وتقرّ قرة (بالضم) وقرّة (بالفتح) وقرورة (بالضم) بمعنى بردت سروراً وجف دمعها[2] ونحن نودّ أن نتبين الحكمة من ابتداء الآية الكريمة بهذا النوع من الغايات بين يدى الغايتين التاليتين ، عدم حزنهن ورضائهنّ رضوان الله تعالى عليهن . ولعلنا نستطيع أن نتبين الحكمة سريعاً حينما

---

(١) تأملات فى سورة الفرقان ١٧٥

(٢) انظر القاموس مثلا.

نتبين أنّ جنس المرأة الّذى خلقه الله تعالى جياشا بالعواطف ، شديد التأثر سريع التأذى لأدنى أذى أو ألم ، ومن أقرب الأدلة على ذلك لدى المرأة وأسرعها حضوراً دموع عينيها ، إنّ الآية الكريمة حينما تريد أن تكفكف من دموع زوجات المصطفى ﷺ ، إنّما تريد فى ألطف الوسائل وأحسنها وأقدرها على ضمان الوصول إلى هذه النتيجة الحميدة . لذا نتبين أن الآية الكريمة يجيء فيها التعبير : ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ذو العلاقة الوثيقة بقرة العين أي بردها الذى تحبه عين العرب وترتاح إليه وتلتذ به . والذى يعبر به عن طمأنينة الرّضا وبشر السعادة ولذة الحبور .

وإنّ الآية الكريمة لا تكتفى بهذه المرحلة ولا بهذه اللمحة والإشارة ، لأنّ ذهاب الدّمع أو عدم وجوده أساساً ، لا يعنى بالضرورة ذهاب ما يرتبط به عادة من حزن . وهما نتبين أنّ الآية الكريمة تتقدم إلى الأمام خطوة ، فتنص على هدفها التالى المتمثل فى ذهاب الحزن أساساً . قال تعالى : ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ولابن القيم فى طريق الهجرتين وباب السعادتين[1] كلام لطيف فى الحزن إلى أن يقول[2] : فالحزن هو بلية من البلايا التى نسأل الله دفعها وكشفها ولهذا يقول أهل الجنة[3] : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية ، ونجاهم منها . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنّه كان يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدّين[4] وغلبة الرّجال . فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء ، كلّ شيئين منها قرينان . فالهم والحزن قرينان . وهما الألم الوارد على القلب . فإن كان على ما يعنىَ فهو الحزن . وإن كان على ما يستقبل فهو الهمّ . فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضى أثر الحزن . وإن كان مصدره خوف الآتى أثرا لهم .. والمقصود أن النبى ﷺ جعل الحزن ممّا يستعاذ منه . وذلك لأنّ الحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضرّ الإرادة . ولا شيء أحبُّ إلى الشيطان من حزن المؤمن قال تعالى[5] إنّما النجوى من الشيطان ليحزن الذين

---

(١) ص ٣٥٨

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ٣٥٩ و ٣٦٠

(٣) سورة فاطر ٣٤

(٤) جاء فى الهامش : ضلع الدين بفتح أوّله وثانيه ثقله وغلبته . وفى رواية : من غلبة الدين وقهر الرّجال .

(٥) سورة المجادلة ١٠

آمنوا . فالحزن مرض من أمراض القلب ، يمنعه من نهوضه وسيره وتسشميره والثواب عليه ثواب المصائب التى يبتلى العبد بها بغير اختياره ، كالمرض والألم ونحوهما ..»قال تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ﴾

وإنّ ثمّة سؤالا : هل جفاف الدّمع ، وخاصة دمع النسوة ، وذهاب حزنهن يعنى بالضرورة الرّضا والسعادة والطمأنينة ؟ لا بطبيعة الحال . فمن الجائز ألاّ يكون الإنسان حزينا ولكنه فى الوقت ذاته ليس راضيا . إنّ هذا المرمى البعيد الذى تمثله المرحلة الثالثة هو الذى تنص عليه الآية الكريمة . إنّ هذا الهدف « الرضا » تنص عليه الآية الكريمة بصريح اللفظ فى حق كل نساء المصطفى ﷺ من مظاهر رضا الله تعالى عنهن وتكريمه إيّاهن . ﴿ ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ وإنّ المصطفى ﷺ ، النبى الإنسان الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين والذى غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والذى رفع عنه الحرج فى القسم لزوجاته ، ما الّذى ينتظر منه وهو الأسوة الحسنة للمسلمين لله ربّ العالمين ، ما الذى ينتظر منه وهو الخبير بخفايا النفوس ، وبخاصة نفوس نسائه ، وهو الذى كان فى خدمة أهليه عليه الصّلاة والسّلام ، وهو التطبيق العملى لمعانى القرآن الكريم الذى نص على أهداف ثلاثة بحق أزواجه ﷺ : أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين ؟ الذى ينتظر منه هو ما نصّ عليه أبو حيّان مثلاً فى البحر المحيط[1] : « واتفقت الرّوايات على أنّه عليه الصّلاة والسلام كان يعدل بينهن فى القسمة حتى مات . ولم يستعمل شيئاً ممّا أبيح له ضبطا لنفسه ، وأخذا بالفضل ، غير ما جرى لسودة مما ذكرناه» «وقال الزُّهرى: ماعلمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ من أزواجه بل آواهن كلهن[2] . »

وبهذا يتبين أنّ نساء المصطفى ﷺ نلن كلّ ما أشارت إليه الآية الكريمة من قضايا ست . لأنّ الثلاث القضايا التى رفع الحرج بشأنها عن المصطفى لم يمارسها فرحها أزواجه ﷺ بسبب عدله ﷺ فى القسمة بينهن فيما يملك . وبناءً على ذلك تحققت آليا القضايا الثلاث الخاصة بنسائه ﷺ من كون هذه المعاملة الكريمة منه

---

(١) ٢٤٤/٧

(٢) تفسير القرطبى ٥٢٩٧

ﷺ قد قرّت بها أعينهن وأذهب حزنهن ورضين عنها كل الرضا .

وإذا كان عدل المصطفى ﷺ فيما يملك قد شمل كلّ أزواجه ﷺ ، فالمعروف أنّ قلبه ﷺ كان يميل إلى عائشة رضى الله تعالى عنها . ومعروف أنّ القلب لا سلطة لمخلوق عليه . ولذا كان ﷺ يقول : اللهم هذه قدرتى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك . يعنى قلبه لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شىء من فعله[1] ويستمر القرطبى قائلا[2] : « وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه . إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة قالت عائشة: أوّل ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة . فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها ، يعنى بيت عائشة . فأذنّ له . الحديث خرجه الصحيح . وفى الصحيح أيضاً عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليتفقّد يقول : أين أنا اليوم . أين أنا غدا . استبطاءً ليوم عائشة رضى الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سحرى ونحرى[3] ﷺ »

وإلى مثل هذا الميل الفطرى الذى لا تثريب على المرء بشأنه مادام عادلاً مع أزواجه فى كلّ ما يملك أشارت الجزئية التالية التى تشمل كل عباد الله تعالى ، ابتداءً بحبيبه المصطفى ﷺ . قال تعالى : ﴿ **والله يعلم ما فى قلوبكم** ﴾ .

وإنّ هذه الجزئية الكريمة لتأخذ بسبب من قوله تعالى فى سورة ق[4] : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ فالله سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلب كلّ مخلوق . بما فى ذلك ميل الأزواج إلى بعض نسائهم قلبيا . فعلى كل أن يحذر أن يعقب ذلك الميل القلبى ميل فى المعاملة . فإنّ هذا ذنب كبير . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقّه مائل[5] .

وقد عمقت الجزئية الأخيرة فى الآية الكريمة ذلك العلم من الله تعالى وأردفته بحلمه

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٨

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٩٨

(٣) السَّحر الرئة . والنحر الصّدر . تريد بين جنبى وصدرى .

(٤) الآية ١٦

(٥) تفسير القرطبى ٥٣٠٠

جلّ وعلا عمّن عصاه ، بأن كان غير عادل فى القسمة . قال تعالى : ﴿ **وكان الله عليما حليما** ﴾ . إنّ الله تعالى حليم على من عصاه لا يعاجله بالعقوبة . فعلى من كان غير عادل فى القسمة ، وخاصة مع زوجاته ، أن يبادر بالتوبة النصوح إلى الله تعالى . ومن أهمّ شروط التوبة هنا العدل فى القسمة بين الزّوجات . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ قال تعالى : ﴿ **ترجى من تشاء منهنّ وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما** ﴾.

لقد تبينا فى الآيتين الكريمتين السابقتين بعض نعم الله تعالى على حبيبه المصطفى ﷺ . فالآية الكريمة الأولى بينت الفئات من النساء اللاّتى أحلّهنّ الله تعالى . فإذا كان منتهى ما فرض الله تعالى للمسلم لله ربّ العالمين أربع نسوة . فإنّ المصطفى ﷺ قد أذن الله تعالى له بأن يتخطى هذا الرقم.وقال ابن عباس وقتادة من بعد ، لأنّ التسع نصاب رسول الله من الأزواج كما أن الأربع نصابُ أمته منهن[2] والآية الكريمة الثانية أعطته ﷺ على جهة الخصوص ثلاثة أنواع من الخصوصيات فيما يتعلق بالقسم بين أزواجه ﷺ . وإذا كان المصطفى ﷺ ، إيثارا للفاضل كرما منه ، لم يمارس هذا الحق ، فذلك راجع إليه ﷺ هو نفسه . وإلاّ فإن ربّ العزّة قد رفع عنه الحرج فى القسم بين أزواجه . فإذا تحوّلنا إلى الآية التالية والأخيرة فى القسم تبينا فى المقابل أنّ حق أزواجه ﷺ فيها هو الواضح قال تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلاّ ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا** ﴾ .

لقد كان عند المصطفى ﷺ تسع نسوة ساعة أمر بتخييرهن بين الحياة الدّنيا وزينتها وبين رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ والدّار الآخرة . وقد اخترن الله ورسوله كما هو معروف .

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة ، فى رفعها الجناح عن المصطفى ﷺ فيما

---

(١) سورة النور ٣١

(٢) البحر المحيط ٢٤٤/٧ وانظر الكشاف ٥٤٦/٢

يتصل بالقسم بين أزواجه قد أعطته ثلاثة مظاهر من الحقوق ، بأن يرجى من يشاء منهنّ ويؤوى إليه من يشاء ومن ابتغى ممن عزل فلا جناح عليه ، فإنّ الآية الكريمة التى نحن بصددها أعطت فى المقابل نساءه ﷺ ثلاثة أنواع من الحقوق كذلك . وذلك فى هيئة تحريم غير النسوة التسع اللاّتى آثرن رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم ﷺ ، وعدم السّماح له بالاستبدال بهنّ غيرهن ، بل عدم السماح له بالاستبدال بهن غيرهن ممّن أعجب المصطفى ﷺ حسنهنّ . وبالنظر إلى هذه الأحوال الثلاث يتبين أنّ ربّ العزّة يكافىء نسوة المصطفى ﷺ التسع ، اللاّتى آثرن الله ورسوله بأن قصره ﷺ عليهن . إنّه لا يحل للمصطفى ﷺ أن يتزوج على هؤلاء التسع مطلقا ، وإنه لا يحل للمصطفى ﷺ أن يبقى عد زوجاته تسعا ولكن عن طريق أن يطلق بعض التسع اللاّتى آثرن رضا الله ورسوله ويستبدل بهن ما يبقى معه عدد زوجاته تسعا ، ولو أعجب المصطفى ﷺ من واحدة أو كثر حسنها . عن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً[1] قتادة ، قال : لماخيرهن فاخترن الله ورسوله والدّار الآخرة قصره عليهن فقال : لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج وهن التسع اللاّتى اخترن الله ورسوله[2] ولا شك أنّ هذا النوع من التكريم لنساء المصطفى ﷺ لإيثارهن رضا الله تعالى ورضا رسوله الكريم والدّار الآخرة . وقد أبقى الله تعالى وراء ذلك لحبيبه المصطفى ﷺ ما هو حق لكل أفراد الأمة الإسلامية من الاحتفاظ بما شاء من السرارى والإماء . قال تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك** ﴾.

وإنّ فى إشارة الآية الكريمة إلى حسن المرأة ، وذلك فى القول : « ولو أعجبك حسنهن » دليلا على أخذ الإسلام فى الاعتبار حسن المرأة عاملا فى الرغبة فى الزواج بها . وقد نص على ذلك الحديث النبوى الشريف .. عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : تنكح المرأة لأربع . لمالها . ولحسبها . وجمالها . ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك[3] وواضح أن الذى يتقدم هذه الأسباب الأربعة هو الدّين

---

(١) تفسير الطبرى ٢١/٢٢

(٢) تفسير الطبرى ٢١/٢٢

(٣) صحيح البخارى ٩/٧

أو الحق ، وأن الذى يتأخر هو الجمال أو الحسن ، الذى يصحّ أن يؤخذ فى الاعتبار حينما يتحقق أهمّ الشروط على الإطلاق ألاّ وهو الدّين .

ويقول الطبرى بشأن هذه الآية الكريمة[1] : « فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت من أن الله حرم على نبيه بهذه الآية طلاق نسائه اللواتى خيرهن فاخترنه ، فما وجه الخبر الذى روى عنه أنّه طلق حفصة ثمّ راجعها ، وأنّه أراد طلاق سودة حتى صالحته على ترك طلاقه إياها ووهبت يومها لعائشة . قيل كان ذلك قبل نزول هذه الآية . والدليل على صحة ما قلنا من أنّ ذلك كان قبل تحريم الله على نبيه طلاقهن الرّواية الواردة أن عمر دخل على حفصة معاقبها حين اعتزل رسول الله ﷺ نساءه كان من قيله لها : قد كان رسول الله ﷺ طلقك فكلمته فراجعك فوالله لئن طلقك أو لو كان طلقك لاكلمته فيك. وذلك لاشك قبل نزول آية التّخيير لأنّ آية التخيير إنما نزلت حين انقضى وقت يمين رسول الله ﷺ على اعتزالهن. وأمّا أمر الدّلالة على أن أمر سودة كان قبل نزول هذه الآية أن الله إنما أمر نبيه بتخيير نسائه بين فراقه والمقام معه على الرضا بأن لا قسم لهن وأنّه يرجى من يشاء منهن، ويؤوى منهن ما يشاء ويؤثر من شاء منهن على من شاء. ولذلك قال له تعالى ذكره : ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك. ذلك أدْنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن. ومن المحال أن يكون الصلح بينها وبين رسول الله ﷺ جرى على تركها يومها لعائشة فى حال لا يوم لها منه. وغير جائز أن يكون ذلك منها إلاّ فى حال كان لها منه يوم هو لها حق كان واجبا على رسول الله ﷺ أداؤه إليها. ولم يكن ذلك لهن بعد التخيير لما قد وصفت قبل فيما مضى من كتابنا هذا فتأويل الكلام: لا يحلّ لك يامحمّد النساء من بعد اللواتى أحللتهن لك فى الآية قبل. ولا أن تطلق نساءك اللواتى اخترن الله ورسوله والدّار الآخرة فتبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسن من أردت أن تبدل به منهن إلاّ ما ملكت يمينك وأن فى قوله : أن تبدل بهن رفع . لأنّ معناها لا يحلّ لك النساء من بعد ولا الاستبدال بأزواجك . وإلا فى قوله : إلاّ ما ملكت يمينك استثناء من النساء . ومعنى ذلك : لا يحلّ النساء من بعد اللواتى أحللتهن لك إلاّ ما ملكت يمينك من الإماء ، فإنّ لك أن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢/٢٤

تملك من أى أجناس الناس شئت من الإماء » وقوله : وكان الله على كل شيء رقيبا ، يقول : وكان الله على كل شيء ، ما أحلّ لك وحرم عليك وغير ذلك من الأشياء كلها حفيظا ، لا يعزب عنه علم شيء من ذلك ولا يؤوده حفظ ذلك كله » .

« ومن فى من أزواج زائدة لتأكيد النفى . وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم »[1] .

وفيما يتصل بالأحكام التى تستنتج من الآية الكريمة يقول القرطبى[2] « فى هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرّجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة فقال له النبى ﷺ : انظر إليها فإنّه أجدر أن يؤدم بينكما[3] وقال عليه السلام لآخر : انظر إليها فإنّ فى أعين الأنصار شيئاً . أخرجه الصحيح[4] ويقول[5] : الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنّما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة . فإنّه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغبه فى نكاحها . وممّا يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبى ﷺ أنه قال : إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل »

« واختلف فيما يجوز أن ينظر منها فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفيها ولا ينظر إلاّ بإذنها . وقال الشافعى وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعى : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها »[6] .

« قوله تعالى : إلاّ ما ملكت يمينك . اختلف العلماء فى إحلال الأمة الكافرة للنبى ﷺ على قولين : تحل لعموم قوله : إلاّ ما ملكت يمينك . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء والحكم .. القول الثانى لا تحل . تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة . وقد قال الله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر . فكيف به ﷺ »[7] قال تعالى : **لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلاّ ما ملكت يمينك . وكان الله على كل شيء رقيبا** .

---

(١) البحر المحيط ٢٤٤/٧ والكشاف ٥٤٦/٢

(٢) تفسير القرطبى ٥٣٠٣

(٣) أحرى أن تدوم المودة بينكما يقال : أدم الله بينهما يأدم أدما أى ألف ووفق .

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٣٠٣

(٥) تفسير القرطبى ٥٣٠٤

(٦) تفسير القرطبى ٥٣٠٤

(٧) تفسير القرطبى ٥٣٠٤

(١٤)
الله وملائكته يصلون على النبى

الآيات ٥٣ ــ ٦٢

بهجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة أنشئت الدّولة الإسلامية ووجد المجتمع الإسلامى . وبما أنّ طبيعة كل مجتمع نام تتجه من البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى المعقد . فقد كان كل مجتمع بحاجةٍ إلى النظم والقوانين التى تنظم العلاقات بين أفراد ذلك المجتمع كى يشق طريقه دون عوائق . وبتدبرنا للمجتمع المدنى آنذاك يتبين أنه يتكون فى جانبه الإسلامى من المؤمنين المتقين ، ومن الذين يقلون إيمانا حتى ينتهى الأمر إلى المنافقين الذين اندسوا فى المسلمين ، والذين تفاوتت درجات نفاقهم ، وانعكست بالتالى فى أعمالهم وأحوالهم ، ومن قبل فى أقوالهم . وإنّ آيات هذا القسم الذى جعلنا عنوانه : الله وملائكته يصلون على النبى . تعنىّ بهذا المجتمع الإسلامى الذى أراد الله تعالى أن يكون له حظه من صفات بيت النبوة الذى قال تعالى عنه : « **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** » وهى تعالج عدداً من المسائل من زاوية علاقتها بشخص الرّسول ﷺ وبيوته وبالمجتمع. وهذه المسائل تتفاوت فى طبيعتها وآثارها . وبما أنّ النظافة أهم سمات هذا المجتمع المسلم ، وتُعنى بها نظافة السلوك والمعاملات ، فإن كل ما يعكر صفو هذه النظافة تزيله الآيات الكريمات . وقد آتى هذا المنهج القرآنى الحكيم أكله . ويكفى أن يقال فى هذا الصدد إن سلوك أهل المدينة المنوّرة فى صدر الإسلام كان له دوره فى مجال الأدلة الفقهية . وهذه هى آيات القسم . قال تعالى : « **يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلاّ أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا**

فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإنّ الله كان بكل شيء عليما . لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولاأبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله،إنّ الله كان على كل شيء شهيداً . إن الله وملائكته يصلون على النبى، يا أيّها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما . إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا . يا أيّها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين،وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلنسر خطوة خطوة مع سلم تعاليم هذا المنهج فى آيات القسم هذه . ونبدأ بالآية الكريمة الأولى .

قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم، والله لا يستحى من الحق . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنحكوا أزواجه من بعده أبدا ، إنّ ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ .

ومن الواضح أنّ الآية الكريمة تعرض لمسألتين رئيسيتين ، الأولى آداب دخول بيوت النبى ﷺ من أجل الطعام . ويتبعها بيوت المسلمين . والثانية مسألة الحجاب . فإنّه أطهر لقلوب كل من الرّجال والنساء ويندرج تحت هاتين المسالتين الرّئيسيتين عدد من القضايا .

فما مناسبة نزول الآية الكريمة . قال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه . أنا أعلم

الناس بهذه الآية آية الحجاب[1] عن أنس رضى الله عنه قال : بُنِيَ على النبى ﷺ بزينب ابنة جحش بخبز ولحم . فأرسلت على الطعام داعيا ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثمّ يجيء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو . فقلت يا نبى الله ما أجد أحداً أدعوه . قال : ارفعوا طعامكم . وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت . فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله . فقالت : وعليك السلام ورحمة الله . كيف وجدت أهلك بارك الله لك . فتقرّى[2] حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع النبى ﷺ فإذا ثلاثة من رهط فى البيت يتحدثون . وكان النبى ﷺ شديد الحياء . فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة . فما أدرى آخبرته أو أخبر أنّ القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله فى أُسْكُفَّة[3] الباب داخلة ، وأخرى خارجه ، أرخى الستر بينى وبينه . وأنزلت آية الحجاب »[4] ويضيف القرطبى[5] : « فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدّثون فى بيت رسول الله ﷺ ، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ » .

وأخرج الطبرانى بسند صحيح عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبى فى قعب فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه إصبعى فقال : أوّه[6] لو أطاع فيكنّ ما رأتكن عين ، فنزلت آية الحجاب[7] ويقول ابن كثير[8] هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية . وهى ممّا وافق تنزيلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنّه قال : وافقت ربى عزّ وجل فى ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى . فأنزل الله تعالى : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى[9] وقلت يا رسول الله : إنّ نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن

---

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٦

(٢) تقرّى حجر نسائه بمعنى تتبع الحجر وطاف بها .

(٣) الأسكفة خشبة الباب التى يوطأ عليها

(٤) صحيح البخارى ١٤٩/٦

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٣٠٦

(٦) أوّه بفتح الواو المشدّدة كلمة تقال عند الشّكاية أو التوجع قاموس

(٧) لباب النقول ص ١٧٨

(٨) تفسير ابن كثير ٥٠٣/٣

(٩) سورة البقرة ١٢٥

فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن[1] فنزلت كذلك . وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر وهى قضية رابعة »[2] .

وكان وقت نزول آية الحجاب فى صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التى تولى الله تزويجها بنفسه . وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة فى قول قتادة والواقدى وغيرهما[3] وقد علق القرطبى بشأن الرّوايتين المتعلقتين بعمر رضى الله تعالى عنه فى قضية الحجاب سبب النزول[4] : « هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب . وما عدا هذين القولين من الأقوال والرّوايات فواهية ، لا يقوم شىء منها على ساق » ويلاحظ أن القرطبى جعل الموافقة فى أسارى بدر موضع الموافقة فى إبداله ﷺ بأزواجه إن طلقهن خيراً منهن .

وبشأن اشتمال الآية الكريمة على الأدب فى أمر الطعام والجلوس ، جاء فى سبب النزول عن ابن عباس القول : كان ناس يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثمّ يأكلون ولا يخرجون وكان يتأذى بهم فنزلت[5] .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال . بلغ النبى ﷺ أنّ رجلا يقول : لو قد توفى النبى ﷺ تزوجت فلانة من بعده فنزلت : وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية[6] وأخرج ابن سعد عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : نزلت فى طلحة بن عبيد الله لأنه قال : إذا توفى رسول الله ﷺ تزوجت عائشة[7] قال ابن عطية وهذا عندى لا يصح على طلحة فإنّ الله عصمه منه[8] .

وبعد الوقوف على ما قيل فى أسباب نزول الآية الكريمة ، نودّ أن نتأملها جزئية

---

(١) سورة التحريم ٥

(٢) يريد الآيات ٦٧ - ٦٩ من سورة الأنفال .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٠٣/٣

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٣٠٦

(٥) البحر المحيط ٢٤٦/٧ وتفسير القرطبى ص ٥٣٠٦

(٦) لباب النقول ص ١٧٨

(٧) لباب النقول ١٧٩ وانظر تفسير ابن كثير ٥٠٦/٣

(٨) البحر المحيط ٢٤٧/٧

جزئية . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا** ﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تبدأ بمخاطبة المؤمنين الثمرة الحقيقية لمنهج التربية الإسلامية ، لأنهم هم المنتفعون حقيقة بهذه التعاليم السماوية ، وهم الذين سيقومون بتطبيقها . وإنّ فى خطاب ربّ العزّة أساساً تلك الصفوة من المؤمنين ، بخلع أحسن الصفات عليهم وأهمّها وهى صفة الإيمان ، بمثابة التكريم من ربّ العالمين لهؤلاء المؤمنين وبمثابة الشهادة لهم بأنهم حققوا أهمّ هدف خلقوا من أجله ويستحقون عليه الجنّة ، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . إذ المعروف أنّ ربّ العزّة إنّما جعل الجنة ثواب من تحققت فيه صفة الإيمان هذه على جهة الخصوص[1] .

وإنّ البيوت قد أضيفت إلى النبى ﷺ فى الآية الكريمة : ﴿ **لا تدخلوا بيوت النبى** ﴾ ممّا يفهم منه أن البيت للرجل[2] بينما جاء فى السّورة الكريمة من قبل قوله تعالى خطابا لنساء النبى ﷺ[3] ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ وقد علق القرطبى على هذه المسألة قائلا[4] : « إضافة البيوت إلى النبى ﷺ إضافة ملك . وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محلّ » .

« لا تدخلوا بيوت النبى : حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك . وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة . ولهذا قال رسول الله ﷺ : إياكم والدخول على النساء الحديث . ثمّ استثنى من ذلك فقال تعالى : **إلاّ أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه** . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحينين نضجه واستواه . أى وترقبوا الطعام إذا طبخ حتى قارب الاستواء تعرضتم للدخول . فإنّ هذا ممايكرهه الله ويذمه »[5] إناه : إدراكه[6] : يقال : أنى الشيء يأنى أنيا وإنى (بكسر الهمزة) وأنى (بفتح الهمزة) وهو أنيّ : حان وأدرك ... ابن

---

(١) أفاض ابن تيمية الحديث فى كتاب الإيمان بأنّ ربّ العزة جعل الجنة ثوابا للإيمان وليس الإسلام فقط .

(٢) تفسير القرطبي ٥٣٠٧

(٣) الآية ٣٣ .

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٣٠٧

(٥) تفسير ابن كثير ٥٠٥/٣

(٦) صحيح البخارى ١٤٨/٦

الأنبارى : الأنى من بلوغ الشيء منتهاه مقصور يكتب بالياء .. وإنى الشيء : بلوغه وإدراكه .. وبلغ الشيء إناه وأناه أى غايته . وفى التنزيل العزيز : غير ناظرين إناه ، أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه[1] .

وإنّ القول : لا تدخلوا بيوت النبى يفهم منه أنّ الأساس منع دخول المؤمنين بيوت النبى ﷺ . ويقاس على ذلك بيوت المؤمنين أنفسهم .

وثمّة مجموعة من المسائل تضمنتها الآية الكريمة . ونحن نودّ أن نتحدّث عنها وفق ترتيبها فى الآية الكريمة ما أمكن . وهذه المسائل هى :

١ – عادة بعض المسلمين الدّخول دون دعوة وربما دون إذن بيوت النبى ﷺ ، من أجل الطعام ، متحينين الوقت الملائم لذلك الغرض منتظرين دون ملل نضج الطعام كى يلتهموه وإذا انتهى الطعام آنس بعضهم بعضا بالحديث .

٢ – بينت الآية الكريمة بصريح العبارة أنّ ذلك العمل يؤذى النبى ﷺ .

٣ – المفروض فى المسلم أن يكون عزيز النفس كريمها متواضعا غير متعال . لا يمتنع على أخيه المسلم إذا دعاه . فإذا دعاه ، عليه أن يذهب فى الوقت المناسب المعتاد ، ولا يدخل بيت الدّاعى إلاّ بعد استئناس واستئذان . لأن الدعوة شيء والإذن شيء آخر . فإذا تناول الطعام غادر مكان الدّعوة غير مستأنس مع الآخرين لحديث ، لأنّ فى ذلك إضافة تعب إلى تعب القائمين بشئون الدعوة رجالاً ونساءً .

٤ – على الرغم من تأذى المصطفى ﷺ ممايفعله الضيفن أو الطفيلى ، وممّا يفعله بعد تناول الطعام من مكث لا مبرر له ، فإنّه ﷺ ذا الخلق العظيم ، لم يكن ينبس ببنت شفة.وإنّ ربّ العزّة ليرشد الأمة الإسلامية فى شخص أولئك الذين آذوا النبى ﷺ واستحيا منهم ، إلى آداب الولائم والدعوات .

٥ – بما أن الذين يقومون بأمثال هذه التصرفات من تطفل على الموائد وتثاقل بعد تناول الطعام ، ليسوا جميعاً على المستوى الذى يطلبه الإسلام فى المسلم من حسن الخلق . وبما أن منهج الإسلام التربوى أن يحسم أسباب الشرور والآثام أصلا ، بحيث إن الامتثال لتعاليمه يؤدىّ إلى تثبيت قواعد الفضيلة والقضاء على الرّذيلة ، لذا فإنّ الإسلام يبين الطريق الصحيح الذى يتم بواسطته التعامل بين الرّجال غير المحارم

---

(١) لسان العرب « أنى »